من أسرار التعبير القرآني
في سورة القارعة

دراسة بلاغية تحليلية

دكتور

شعبان محمد علي كفافي

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وحبيب الحق سيدنا- محمد صلى الله عليه وسلم- وعلى آله وأصحابه الطيبين الأطهار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن القرآن الكريم هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم والصراط المستقيم، وهو المعجزة العظمى الباقية على مر الأزمان والدهور، لا تزيغ به الأهواء، ولا يشبع منه العلماء، لا تفني ذخائره ولا تنقضي عجائبه، سطع نور هديه في الأكوان، وعمت رحمته كل مكان.

ولقد عنت لعظمته وجوه الفصاحة، وأرباب البلاغة، وأساطين البيان؛ فعندما حاولوا معارضته انقلبوا صاغرين، وخروا لبلاغته ساجدين، فأصبحوا لإعجازه وسحر بيانه معترفين؛ لأنه تنزيل من رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين.

وقد أمرنا الله عز وجل أن نتدبر هذا القرآن لنعي أغراضه ومراميه، ونهتدي بهداه، ونستضيئ بأنواره، ونتزود من معينه الذي لا ينضب، ونرتشف من رحيقه العذب، ونرتوي من مائه السلسبيل .

ومما لا شك فيه أن أسرار القرآن فوق كل إدراك وفوق كل تصور، ومن ثم لا يحيط بهذه الأسرار بشر؛ لهذا يقول سهل بن عبدالله:

"لو أعطي العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه؛ لأنه كلام الله، وكلامه صفته. وكما أنه ليس لله نهاية، فكذلك لا نهاية لفهم كلامه؛ وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه، وكلام الله غير مخلوق، ولاتبلغ إلى نهاية فهمه فهوم محدثة ومخلوقة."(١)

---

(١)البرهان في علوم القرآن للزركشي جـ١ ص٩- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - مكتبة دار التراث- بالقاهرة- بدون.

من أجل ذلك كلما يممت وجهي تجاه البحث في هذا البحر الخضم الذي لا يدرك غوره؛ كنت أقدم رجلا وأأخر أخرى؛ خوفا ورهبة وإجلالا لعظمة هذا القرآن.

ولكن شاءت إرادة الله أن أتلقى دعوة من مديرية التربية والتعليم بإحدى ولايات سلطنة عمان في أثناء إعارتي لها.

وكانت هذه الدعوة لإلقاء محاضرة عن البلاغة القرآنية في شهر رمضان المبارك.

فأراد الله أن تكون سورة "القارعة" أنموذجا تطبيقيا حول البلاغة القرآنية في هذه المحاضرة.

وبعد توفيق الله لي شرح الله صدري وأنار قلبي؛ لتكون نقطة البداية مع البحث في كتابه الكريم؛ فعقدت العزم وأخلصت النية على أن أقوم بواجبي نحو هذا الكتاب الخالد؛ أتدبر معانيه لعلى أقف على بعض أسراره ومراميه مع سورة القارعة في هذا البحث.

وقد اعتمدت المنهج التحليلي منهجا لهذه الدراسة والذي يتخلص فيما يأتي :

- التحليل اللغوي للألفاظ، وتلمس دلالتها اللغوية، وإيحاءاتها، ومعرفة استعمالاتها الحقيقية والمجازية؛ وهذا يهدينا إلى الكشف عن جمال الألفاظ في موقعها الخاص بها، وسر اختيارها.
- الإشارة إلى سر إيثار التعبير القرآني لألفاظ السورة دون غيرها من المترادفات، وربط ذلك بالغرض المسوق له الكلام.
- المقارنة بين الألفاظ والمعاني التي جاءت بها السورة، وبين نظائرها في القرآن ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

وبعد، فهذه محاولة متواضعة للوصول إلى بعض دقائق القرآن الكريم؛لعلها تقربنا من بعض أسراره.. فإن وفقت في شيء من ذلك فذلك من فضل ربي، وإن كانت الأخرى فحسبي أنني اجتهدت. وأسأل الله أن يغفر لي ما جرى به قلمي بلفظ لا يليق، أو ذكر معنى يخالف مراد الله في كتابه، كما أسأله تبارك وتعالى أن يفقهنا في الدين ويعلمنا التأويل، وأن يلهمنا الفهم الصحيح لآيات كتابه العزيز، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

دكتور
شعبان محمد علي كفافي
كلية اللغة العربية بالزقازيق

تمهيد

بين يدي السورة:

أولا: السورة بين المكية والمدنية:

سورة القارعة سورة مكية باتفاق المفسرين ، ومن ثم لم يرد لها اسم آخر غير "الْقَارِعَةُ"(١)

واختلف في عدد آياتها. فأهل الكوفة عدوها:إحدى عشرة آية، وهي ما عليه الطبعة المتداولة بالرسم العثماني بقراءة حفص عن عاصم؛ حيث جاء لفظ "الْقَارِعَةُ "(١) أعلى الآية الأولى، وجاءت جملة "مَا الْقَارِعَةُ"(٢) الآية الثانية.

وعند أهل مكة والمدينة "عشر آيات"، وهو ما جاء عليه طبعة المغرب العربي براوية ورش عن نافع؛حيث جاءت جملة "الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ" آية واحدة وهي الآية الأولى ، ولم يعدوا لفظ "الْقَارِعَةُ" آية بمفردها كما هو الحال عند أهل الكوفة.

هذا ما أطلعت عليه فيما وقع تحت يدي من الطبعتين التي أشرت إليهما

أما أهل الشام والبصرة فعدوا آياتها :ثمانية.

وأما عدد كلماتها فستٌ وثلاثون كلمة.

ثانيا: وجه تسمية هذه السورة:

وقد سميت هذه السورة "بالقارعة"- والله أعلم - لافتتاحها بلفظ "الْقَارِعَةُ" ثم تكراره ثلاث مرات في آياتها الثلاث الأولى.

وسميت بذلك ؛ لأنها تقرع الناس بالفزع والهلع والخوف ، وتقرع أعداء الله بالعذاب والخزي والنكال.

---

(١) ينظر ذلك : جمال القراء وإكمال الإقراء للإمام علم الدين السخاوي جـ١ ص٢٠١ تحقيق عبد الحق عبد الدايم - موسوعة الكتب الثقافية الطبعة الأولى ١٤١٩هـ-١٩٩٩ ومصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور لأبي الحسن البقاعي جـ٣ ص ٢٤٠ تحقيق عبد السميع حسين، وأسماء سور القرآن، عبد الله بن سالم الهنائي الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥مطبعة عمان.

(٢) ينظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ١ صـ ٢٣٨ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م.

موقع السورة بين سور القرآن

جاءت سورة القارعة في ترتيب المصحف السورة: الواحدة بعد المائة (١٠١) بعد سورة "العاديات" ، وقبل سورة "قريش" أي أنها بين العاديات وقريش.

وعدت الثلاثين في عداد نزول السور؛حيث نزلت بعد سورة قريش ، وقبل سـورة القيامة[١] ، أي أنها بين قريش والقيامة.

ثالثا : أغراض السورة ومقاصدها

تشتمل السورة الكريمة على مقاصد وأغراض تدور حول أهم القضايا التي ترتكـز عليها عقيدة المسلم وهي قضية البعث والجزاء ، وهذه القضية من أهم سـمات القـرآن المكي.

وقد بدأت السورة بالحديث عن القارعة وتفخيم أمرها وتعظيمها من خلال تكـرار لفظ القارعة ثلاث مرات مصحوبة بالاستفهام عنها، وهذا واضح جلي في الآيات الـثلاث الأولى.

بعد ذلك وضحت السورة ما تحدثه القارعة من فزع وهلع وتبديل لأحوال الكائنات، وهي بعض مشاهد القيامة ؛ فبدأت بمشهد الناس بعد خروجهم من أجداثهم –وهـم علـى كثرتهم– يتطايرون في كل اتجاه في حالة اضطراب يموج بعضهم في بعـض كـالفراش المبثوث.

وثنّت السورة بما سيكون عليه صورة الجبال الراسيات الشامخات وهـي تتطـاير كالصوف المنفوش تتقاذفه الرياح في كل اتجاه.

ثم قسمت الآيات أحوال الناس _بحسب ثقل الميزان وخفته_ قسمين.

فأما القسم الأول فهم الذين ثقلت موازينهم بالحسنات ؛ فكان جزاؤهم عيشة راضية في جنة عالية.

وأما الصنف الآخر فهم الذين خفت موازينهم برجحان سيئاتهم على حسناتهم ؛ فكان مصيرهم الهاوية في نَار حَامِيَة.

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جـ٣٠ صـ٥٠٩–دار سحنون للنشر والتوزيع بتونس.

رابعا: مناسبة السورة لما قبلها من ناحية الترتيب المصحفي :

تقع سورة القارعة بعد سورة العاديات من ناحية الترتيب المصحفي ؛ بينما تقع بعد سورة "قريش" من ناحية الترتيب التنزيلي .

مناسبة فاتحة سورة "القارعة" لخاتمة ما قبلها "العاديات":

المتأمل في آخر سورة العاديات يلحظ شدة الارتباط بين سورة العاديات وأول سورة القارعة.؛ فالآيات الثلاث الأخيرة من سورة العاديات ذكرت : بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور، وختمت بقوله تعالى: " **إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ** " ومن المعلوم أن بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور لن يكونا إلا في يوم القيامة ، والذي أكد الله أنه بأحوال الناس في هذا اليوم لخبير.

فكأن سائلا سأل عن أحوال هذا اليوم الذي تبعثر فيه القبور، ويحصل فيه ما كان في الصدور بقدرة اللطيف الخبير.

؛فجاء الجواب في أول سورة القارعة؛ بأن هذا اليوم يُقرع فيه كل ما في الكون من مخلوقات ، ثم بين أحوال الناس فيه وما يؤول إليه مصيرهم فيه من ناحية الثواب والعقاب.

و من ثم كانت المناسبة بين فاتحة سورة القارعة وخاتمة ما قبلها واضحة جلية.؛ فأول القارعة هو اليوم المشار إليه في آخر سورة العاديات "إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ" وهو اليوم الذي تبعثر فيه القبور، ويحصل فيه ما كان كائنا في الصدور.

يقول صاحب نظم الدر: "لما ختم العاديات بالبعث ذكر صيحته فقال "الْقَارِعَةُ" أي الصيحة أو القيامة، سميت بها لأنها تقرع أسماع الناس وتدقها دقا شديدا عظيما مفزعا بالأفزاع.[١]"

وإذا كانت العلاقة بين آخر العاديات وأول القارعة شديدة الوضوح ؛ فإن هناك مناسبة واضحة –أيضا– بين مطلع السورتين؛ فنلحظ في بداية القارعة قوة قرع وشدة صوت يهز القلوب والأسماع هزا، هذا وفي أول العاديات إشارة إلى قوة ضرب الخيل الأرض بسنابكها،وإلى قدحها الحجارة بحوافرها فيتطاير منها الشرر، فضلا عن إثارتها للغبار الكثيف من شدة عدوها، ومن ثم يسمع لها صوت شديد –أيضا– وكل ذلك يحدث هلعا وفزعا في وسط الأعداء.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ج٨ ص٥١٣ تحقيق عبدالرازق المهدي–دار الكتب العلمية–بيروت ١٤١٥هـ–١٩٩٥.

وإن كان الفرق كبيرا بين ما يحدث في الدنيا وبين ما يحدث في الآخرة، ومن ثـم كان في القارعة أشد وأقوى.

كما نلحظ أن سورة العاديات تحدثت عن جحود الإنسان وكفره بنعمـة ربـه " **إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**"[(١)] وجاءت سورة القارعة لتبين مصيره فأدخلته في

في صنف "وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُه".

ولا يخفى حديث العاديات عن بعثرة ما في القبور وإخراج ما فيها من أموات، وهو مشهد من مشاهد البعث والحشر.

وجاءت سورة القارعة لتبين الحالة التي سيكون عليها هذا المشهد وهم يتطـايرون كالفراش المبثوث.

و في قوله تعالى: "إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ" جاء لفظ "لخبيـر" متضـمنا معنـى المجازاة: أي يجازيهم على أعمالهم. "قال الإمام القرطبي: ولكن المعنى: أنه يجازيهم في ذلك اليوم"[(٢)].

وفي حاشية الشهاب "كناية عن المجازاة"[(٣)].

وإذا كانت العاديات قد ضمنت بما يشير إلي مجازاة الناس على أعمالهم؛ فإن سورة القارعة بينت مآلهم ومصيرهم، فصنف منهم ممن ثقلت موازينهم؛ فهم في عيشة راضية، والآخر ممن خفت موازينهم فهم في نَار حَامِيَة.

مناسبة السورة لما قبلها من حيث الترتيب التنزيلي

تقع سورة القارعة بعد سورة "قريش" من حيث التنزيل الترتيبي، وسـورة قـريش تتحدث عن أهل حرم الله وولاة بيته؛ فقد كانت لهم رحلتان: إحداهما في الشتاء إلي اليمن، والأخرى في الصيف إلي الشام، ومن المعلوم أن الطريق في تلـك الـرحلتين محفـوف بالمخاطر؛ فالناس فيهما بين متخطف ومنهوب؛ فضلا عن أنهم كانوا عرضة للجوع فـي فلواتهم التي قل ماؤها وزادها.

---

(١) العاديات ٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١٩ صـ١١- دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الخامسة ١٤١٧هـ-١٩٦٦ وينظر صفوة التفاسير للصابوني جـ٣ صـ٤٣١- دار إحياء التراث-بيروت.

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي جـ٨ صـ٢٩٢ دار صادر- بيروت.

وقد منّ الله على أهل حرمه وولاة بيته بأن أطعمهم من بعد جـوع وآمـنهم مـن الخوف الناتج عن مخاطر الرحلتين، ومن ثم أمرهم بالثبات على عبادة ربهم؛ الذي هـو رب البيت الذي تعلقوا به.

وإذا كانت سورة قريش ختمت بالأمن من هذا الخوف؛ فإن أول سـورة القارعـة بدأت بلفظ "الْقَارِعَةُ" وهو الخوف بعينه؛ ففيه خوف وهلع وفزع من شدة قرع القيامة، وما يحدث في ذلك اليوم من أهوال، والله عز وجل قد أمن أهل طاعته ممن ثقلت مـوازينهم من خوف وفزع القارعة وأكرمهم بأن جعلهم في عيشة مرضية، وفي ذلك إطعام ما بعده إطعام.

– وإذا كانت سورة قريش تحدثت عن ذلك الإطعام بشكل صـريح، فـإن سـورة القارعة ذكرته بصورة ضمنية؛ حيث يلزم من العيشة المرضية في الآخرة إطعام دائـم، ومن ثم فإن إطعام الدنيا بجوار إطعام الآخرة لا شيء.

وكذلك إذا كانت سورة قريش تحدثت عن الأمن والخوف بلفظ صريح. فإن سـورة القارعة ذكرته ضمنا؛ لأن الذين هم في عيشة مرضية هم في ضيافة الرحمن في جنتـه، ومن ثم كان الأمن والأمان.

وقد عبر الله عن هذا الأمن في آيات أخرى " **مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آَمِنُونَ**"(١).

ومن المعلوم أن الله الذي أطعم أهل بيته وولاته من جوع وأمنهم من خوف الدنيا، قادر على أن يتم نعمته عليهم في الآخرة؛ وهذا ما تحدثت عنه سورة القارعة: " فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ".

ومما يلاحظ في سورة قريش أن الله أمرهم بعبادته في قوله: "**فَلْيَعْبُـدُوا رَبَّ هَـذَا الْبَيْتِ**"؛ فلا شك أن الذين يعرضون عن عبادته خفت موازينهم وسيدخلون جهنم داخرين؛ وهذا ما ذكرته سورة القارعة بصورة صريحة "وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ومـا أدراك ما هيه نَارٌ حَامِيَةٌ" .

هذا ما ظهر لي من وجه ارتباط بين سورة قريش وسـورة القارعـة "والله أعلـم بمراده.

مناسبة مطلع سورة القارعة مع خاتمتها

---

(١) النمل ٨٩.

من الواضح الجلي أن بداية سورة القارعة بلفظ "القارعة" فيه قرع وصوت شـــديد يحدث خوفا وفزعا وهلعا.

وفي الخاتمة -أيضا- هذا الصوت الشديد للنار الحامية كما قال تعالى: "وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٦) إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ (٧) تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ (٨)" (١) وفي ذلك -أيضا- خوف وفزع وهلع.

فإذا كانت البداية مرعبة ومخيفة فكذلك كانت الخاتمة.

وفي المطلع -أيضا- إشارة إلى عظم قرع القارعة وشـــدته؛ وأن قـــوارع الـــدنيا بجوارها كأنه لا شيء، وفي الخاتمة إشارة إلى عظم نار الآخرة، وأن نار الدنيا بجوارها كأنها لا شيء وفي ذلك يقول الإمام الرازي:" كأنه تعالى قال: قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار؛ ولذلك قال في آخر السورة "نَارٌ حَامِيَةٌ" تنبيها على أن نار الدنيا في جنب تلك ليست بحامية؛ وصار آخر السورة مطابقا لأولها من هذا الوجه." (٢)

وإذا كانت الخاتمة "نَارٌ حَامِيَةٌ" فعلى رأي الضحاك بأن القارعة: النار ذات الزفيـــر كأنه يريد أنها اسم جهنم(٣) "فتكون البداية ذكر النار وإن كانت غير صريحة، وفي الخاتمة ذكرت النار- أيضا- وإن كانت أشد صراحة. وإذا كانت البداية قرعا شـــديدا ناســـب أن تكون الخاتمة نارا شديدة -أيضا.

---

(١) الملك آية ٦، ٧، ٨.

(٢) التفسير الكبيرللرازي جـ٣٢ صـ٦٨ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

(٣) هذا رأي الضحاك ينظر التفسير الكبيرللرازي جـ٣٢ صـ٦٨ ،التحرير والتنوير جـ٣٠ صـ٥١٠ – دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس.

الْقَارِعَةُ " آية (١)

افتتح الله عز وجل السورة بلفظ "الْقَارِعَةُ" وهو لفظ مصور لحالة الرعب والهلع والفزع التي سيكون عليها أهل الكفر والضلال؛ المكذبين ليوم القيامة والمشككين في أمر البعث.وكذلك مصور لما ستحدثه القارعة من تبديل في الكون .

وإذا تأملنا البلاغة الصوتية لحروف كلمة الْقَارِعَةُ ؛ فإننا نرى الوقف على "ال" وكأنه إشارة إلى بدء الانطلاقة، وكذلك المد الموجود في "قا" مع الضغط عليه كأنه تصوير لرفع شيء ثقيل، ثم النزول بهذا الثقل إلى النطق بحرف الراء المكسورة، ثم الانتقال إلى نطق المقطع الأخير "العين المفتوحة" مع التاء المربوطة التي يوقف عليها بالهاء الساكنة في حالة الوقف؛ وهذا المقطع يمثل صوت الانفجار القوي المفاجئ مثل انفجار القنبلة القوية المفاجئة. ولا شك أن ذلك يحدث فزعا وهلعا، ومن ثم كانت القارعة في الأصل: القرع مع الصوت الشديد، ولا يخفى أن جرس كلمة "الْقَارِعَةُ" تشترك في تصوير المعنى : شدة القرع "الضرب بشدة مع الصوت" ، ومن ثم يكون له وقع في الحس، وسنلحظ زيادة أثر هذا الجرس عندما ينضم إلى التراكيب الأخرى "مَا الْقَارِعَةُ" ثم يترقى عندما ينضم إليه "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ" وهنا يصل إلى قمة التصوير، ومن ثم قمة الإحساس بالأثر، تلك كانت البلاغة الصوتية لكلمة "الْقَارِعَةُ".

والمادة اللغوية لكلمة "الْقَارِعَةُ" تحمل معان عدة منها:

الضرب الشديد المصحوب بالصوت، والمصيبة، والهلاك، والداهية، والحادثة العظيمة، والنازلة الشديدة، ذهاب الشيء، والمفاجأة، والتأنيب والتعنيف، والإيجاع باللوم والتوبيخ.

إذاً كل هذه المعاني من شأنها أن تحدث خوفا ورعبا، فضلا عما سنعرفه بعد قليل من تأثير القارعة في الكون، وسر تسمية القيامة بالقارعة وما يوحيه هذا اللفظ من دلالات.

<u>يقول صاحب لسان العرب:</u> في مادة قرع : "قرع الشيء يقرعه قرعا بمعنى: ضربه. والقراع والمقارعة: المضاربة بالسيوف، وقيل: مضاربة القوم في الحرب.

والقارعة: من شدائد الدهر وهي الداهية، وهي القيامة.

القارعة: النازلة الشديدة تنزل عليهم بأمر عظيم؛ ولذلك قيل ليوم القيامة: القارعة.

ويقال: قرعتهم قوارع الدهر أي: أصابتهم.

يقال: أصابته قارعة يعني: أمرا عظيما يقرعه، وهى المصيبة التي لا تدع مالا ولا غيره.يقال: قرعه أمر إذا أتاه فجأة، وجمعها قوارع.

وأرض قرعة، لا تنبت شيئا، وأصبحت الأرض قرعاء: رُعي نباتها ومنه قرع الرأس: وهو أن يصلع فلا يبقى على رأسه شعر وقيل: هو ذهاب الشعر.

إذاً القرع فيه معنى ذهاب الشيء وتحويله من حال إلى حال ومن المعلوم أن في القيامة تبديلا لما كانت عليه الأشياء في الدنيا.

استعمال القرع في الجانب المعنوي:

والتقريع" التأنيب والتعنيف، وقيل هذا الإيجاع باللوم. وقرعت الرجل إذا وبخته، ويقال: قرعني فلان بلومه "ومعلوم أن يوم القيامة لا يخلو من إيلام الكافر وإيجاعه باللوم والتأنيب والتعنيف.

ومما يدل على هذا المعنى في شعر العرب قول النابغة الذبياني:

إلا مقالة أقوام شقيت بها   كانت مقالتهم قرعا على الكبد[١].

وفي اللسان[٢]: قال المبرد: القارعة مأخوذة من القرعة في رفع قوم وحط آخرين.

لفظ القارعة في القرآن

ورد لفظ القارعة معرفا بالألف واللام كما في سورة القارعة مرة واحدة في سورة الحاقة " كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ"[٣]وورد مرة واحدة منكرا في سورة الرعد[٤] بمعنى : الحاثة العظيمة " وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ".

---

(١) ديوان النابغة صــ٢٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم / دار المعارف–الطبعة الثالثة.

(٢) اللسان مادة قرع.

(٣) الحاقة آية ٤.

(٤) الرعد آية ٣١.

بين القارعة والحاقة

وقد وضعت القارعة موضع ضمير الحاقة في قوله تعالى: "كـذبت ثمـود وعـاد بالقارعة" لما في القارعة من الدلالة على شدة الهول ما ليس في ضمير الحاقـة. يقـول الزمخشري: "ووضعت موضع الضمير لتدل على معنى القرع في الحاقة زيادة في وصف شدتها"(١).

وقد جعل الطاهر بن عاشور القارعة مرادفة للحاقة وأن القارعة مراد منها ما أريد ب"الحاقة:" فعدل إلى إظهار اسم القارعة؛ لأن القارعة مرادفة للحاقة في إحدى محملـي لفظ "الحاقة" وهذا كالبيان للتهويل الذي في قوله: وما أدراك ما الحاقة. و"الْقَارِعَةُ" مـراد منها ما أريد بـ"الحاقة"(٢). والرأى الأول أولى وأليق بجلال القرآن وإعجازه.

وقد نفى الرازي هذا الترادف وذلك في قوله: "الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ أشد من قولـه: "الحاقة ما الحاقة" لأن النازل آخرا لابد وأن يكـون أبلـغ؛ لأن المقصـود منـه زيـادة التنبيه؛وهذه الزيادة لا تجعل إلا إذا كانت أقوى. وأما بالنظر إلى المعنى؛ فالحاقـة أشـد لكونها راجعة إلى معنى العدل، والقارعة أشد لما أنها تهجم على القلوب بالأمر الهائل.(٣)

وهذا يدل على أن كل حرف في القرآن له دلالته يختلف عن مثله، وكل لفظة لهـا دلالتها وتختلف عن مثلها، وإن دق معرفة ذلك ولطف على القارئ؛ ليبقى أنه كـلام رب العالمين، وسبحان من هذا إعجازه.

لماذا سميت القيامة بالقارعة

اتفق جمهور المفسرين على أن القارعة من أسماء يوم الحشر. ويقول أبو حيـان: وقال الجمهور القارعة: القيامة نفسها لأنها تقرع القلوب بهولها، وقيل صيحة النفخة فـي الصور؛ لأنها تقرع الأسماع وفي ضمن ذلك القلوب، وقال الضـحاك: هـي النـار ذات التغيظ والزفير.(٤)

---

(١) الكشاف جـ٤ صـ١٤٩_طبعة دار الفكر،وينظر البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي_الطبعة الثانية_دار الفكر جـ٨ صـ٢٣١، تفسير روح المعاني للألوسي جـ٢٩ صـ٤٠ دار إحياء التراث_ بيروت_ لبنان_ الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٢) التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ١١٥.

(٣) التفسير الكبير للرازي جـ٣٢ صـ٦٨.

(٤) تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي جـ-٨-صـ٥٠٦الطبعة الثانية١٤٠٣هـ/١٩٨٣م دار الفكر.

وسميت القيامة بالقارعة؛ لأنها تقرع كل ما في الكون من عـالم الإنسـان وعـالم الطبيعة السماوية والطبيعة الأرضية؛ فتقرع الناس بالفزع والهلـع، وتقـرع أعـداء الله بالعذاب والخزي والنكال؛ وإن كان المؤمنون آمنون من هذا الفزع؛ لقوله تعالى: "من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون"(١) وقوله تعالى: "لَـا يَحْـزُنُهُمُ الْفَـزَعُ الْأَكْبَرُ"(٢).

ومن ثم تكون شديدة القرع على قلوب الكفار وأسماعهم؛ لا ينجون مـن صـدمتها وهولها.

وسميت القيامة بالقارعة أيضا؛ لأنها تقرع السماء بالانشقاق، والانفطار، والكشـط، والمورْ، والطي.

والانفطار " إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ "الانشقاق(١)، " إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ "الانفطار(١) ،" وَإِذَا السَّمَاء كُشِطَتْ " التكوير (١١)،" يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا "الطور(٩) ، " يَوْمَ نَطْـوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ "الأنبياء(١٠٤)

وتقرع النجوم بالطمس والانكدار " فَإِذَا النُّجُـومُ طُمِسَـتْ "المرسـلات(٨)، " وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ "التكوير(٢)

وتقرع الكواكب بالانتثار " وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ " الانفطار(٢)

وتقرع الشمس بالتكوير " إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ " التكوير(١)

وتقرع الأرض بالمد والرج والزلزلة، والدك ، والتبـديل: " وَإِذَا الْـأَرْضُ مُـدَّتْ "الانشقاق(٣) ، " إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا"الواقعة (٤) ، " إِذَا زُلْزِلَـتِ الْـأَرْضُ زِلْزَالَهَـا "الزلزلة(١) ، " وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً "الحاقـة(١٤) ، " يَـوْمَ تُبَـدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ "إبراهيم(٤٨).

وتقـرع الجبـال بالـدك والنسـف والتسـيير، والبـث: " وَإِذَا الْجِبَـالُ نُسِـفَتْ "المرسلات(١٠) ، " وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ "التكوير(٣) ، " وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا، فَكَانَتْ هَبَـاءً مُنْبَثًّا "الواقعة (٥، ٦).

---

(١) النمل ٨٧.

(٢) الأنبياء ١٠٣.

"وقيل سميت القارعة بذلك؛ لأن إسرافيل يقرع السور بالنفخ فإذا نفخ النفخة الأولى مات جميع الخلائق، وبالثانية يحيون"(١).

يقول الإمام الرازي "فبسبب تلك القرعة سميت القيامة بالقارعة"(٢).

مما سبق يتضح لنا سبب تسمية القيامة بالقارعة؛ وهو ما تحدثه في الكون من قرع، ويشمل ذلك القرع عالم الإنسان، وعالم الطبيعة السماوية، وعالم الطبيعة الأرضية.

ولفظ القارعة: اسم فاعل من الفعل الثلاثي "قرع" أضيفت إليه تاء التأنيث، لأنه وصف به لفظ مؤنث وهو: القيامة القارعة، أو الساعة القارعة، ومن ثم تكون القارعة صفة لموصوف محذوف تقديره: القيامة أو الساعة والمعنى: القارعة التي تصيب كل ما في الكون بالقرع، وقد ذكرنا فيما سبق صورا من هذا القرع.

وإذا كانت القارعة صفة لموصوف محذوف تقديره: القيامة أو الساعة فإن بلاغة ذلك هي "الإيذان بكمال ظهور اتصافه بهذه الصفة وجريانه مجرى الاسم"(٣).

وقيل: على أنها ما روي عن ابن عباس من كونها من أسماء يوم القيامة اسم جامد لا يعتبر موصوف محذوف. وقيل هي مصدر كالعاقبة والعافية(٤).

وأرى أن القارعة صفة لموصوف محذوف تقديره القيامة أو الساعة أولى، وإيثار القرآن لمادة قرع بهذه الصيغة "الْقَارِعَةُ" هو من الإيجاز البديع لذهاب النفس كل مذهب في تقدير الهول والخوف المترتب على هذا القرع، ومن ثم يكون أوقع في حدوث الرعب والهلع وأثبت.

وهذا من إعجاز اللفظ القرآني من ناحية غزارة مدلولاته وجمال تصويره، وقد مر بنا دلالات مادة قرع.

ووصف القيامة أو الساعة بالقارعة مجاز عقلي من إسناد الموصوف إلى غير ما هو له بتأول لملابسته ما هو له، إذ هي زمان القرع(٥).

---

(١) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين جـ٣ صـ٣٢٨ –دار الجيل بيروت.

(٢) التفسير الكبير جـ٣٢ صـ ٦٧.

(٣) تفسير الألوسي جـ٢٩ صـ٣٩ دار إحياء التراث–بيروت–لبنان الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ–١٩٨٥م.

(٤) السابق جـ٢٩ صـ٣٩،٤٠.

(٥) التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ١١٥.

والإسناد هنا مجاز عقلي علاقته الزمانية: مثل ليله قائم، ونهاره صائم.

"سميَّ يوم القيامة بالقارعة، أي الساعة القارعة؛ أسند الفعل إليها وهو لأهلها يعني أنه سمى زمان الحالة القارعة باسم القارعة"(١).

وإذا كان تسمية القيامة أو الساعة مجازا عقليا، فإن استعمال القـرع فـي معنـى الإصابة يكون مجازا لغويا.

وفي أساس البلاغة ومن المجاز، أصابته قارعة من قوارع الدهر وأقرع الفـرس بلجامه يكبحه، وقرع جبهته بالإناء(٢).

وفي ذلك استعارة القرع للإصابة على سبيل الاستعارة التبعية "والقارعـة تقـرع الناس بالإفزاع أي تصيبهم بها، شبهت الإصابة بالقرع سميت باسمه، ثم اشتق منها فهـي استعارة تبعية"(٣).

والقارعةُ بالضم قراءة الجمهور على أنها مبتدأ مرفوع، وقيل مرفوعة بإضمار فعل والتقدير: ستأتي القارعة(٤) "أو ستأتيكم القارعة".

وقرئ لفظ القارعة بالنصب بإضمار فعل، أي: اذكروا القارعة وعلى هذا تكون "ما في قوله تعالى: مَا الْقَارِعَةُ" زائدة للتوكيد، والقارعة الثانية تأكيد لفظي للأولى(٥).

وزاد الرازي وجها ثالثا في إعراب القارعة بقوله: "إنه تحـذير، وجـاء التحـذير بالرفع والنصب تقول: الأسد الأسد؛ فيجوز الرفع والنصب(٦).

وقيل: بأن لفظ القارعة "مبتدأ خبره محذوف تقديره: القارعة قريبة(٧).

---

(١) حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي جـ٤ صـ٦٨٨.

(٢) أساس البلاغة للزمخشري مادة قرع.

(٣) حاشية شيخ زاده جـ٤ صـ٥٣٥.

(٤) البحر المحيط ج٨صـ٥٠٦ وينظر التفسير الكبير للرازي للرازي جـ٣٢ صـ٦٨، وينظر إعراب القرآن للنحاس جـ٥ صـ٢٦٩ تحقيق د/محمد أحمد قاسم–الطبعة الأولى –دار مكتبة الهلال.

(٥) ينظر البحر المحيط ج٨ صـ٥٠٦، وروح المعاني للألوسي جـ٢٩ صـ٢٢٠.

(٦) التفسير الكبيرللرازي جـ٣٢ صـ٦٨.

(٧) التحرير والتنوير جـ٣٠ صـ٥١٠.

"مَا الْقَارِعَةُ" الآية (٢)

بعد أن ذكر الله عز وجل لفظ "الْقَارِعَةُ" في الآية الأولى هكذا دون الإخبار عنها باللفظ الظاهر؛ جاء بالاستفهام عن حقيقتها وصفتها وحالها في هذه الآية "مَا الْقَارِعَةُ".

ولأن القارعة مما يصعب تصورها؛ فقد فزعت لها النفوس ودهشت لها العقول، وهكذا دائما يستفهم عن الأمور العظيمة الشأن التي لها خطرها.

والاستفهام هنا لا يقصد به حقيقته، ولكن الغرض البلاغي منه التفخيم والتعظيم والتهويل والتعجب من شأن القارعة وقدرها؛ بمعنى أنها لا تحيط بها العبارات ولا تحصرها الإشارات. ومما هو بسبيل من ذلك قوله تعالى: " فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ"[(١)]

وقوله: " وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ"، " وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ "[(٢)] ويفهم من الاستفهام -أيضا- معنى التعجب " ولما كانت تفوق الوصف في عظم شأنها وجليل سلطانها عبر عن ذلك وزاده عظما بالإلهام والإظهار في موضع الإضمار مشيرا بالاستفهام إلى أنها مما يستحق السؤال عنه على وجه التعجب والاستعظام فقال: " ماالْقَارِعَة "[(٣)]

وقد جعل العلامة الطاهرين عاشور العلاقة بين الاستفهام والتعظيم والتهويل علاقة تلازمية على طريقة المجاز المرسل فقال: "وما" استفهامية، والاستفهام مستعمل في التهويل على طريقة المجاز المرسل المركب لأن هول الشيء يستلزم تساؤل الناس عنه. كما جعل جملة "مَا الْقَارِعَةُ" استئنافا للتهويل[(٤)] كما ذكر هذا المعنى في موضع الحاقة "لأن الأمر العظيم من شأنه أن يستفهم عنه فصار التعظيم والاستفهام متلازمين[(٥)].

وقوله: "الْقَارِعَةُ" إظهار في مقام الإضمار فمن الواضح الجلي أن المقام هنا للإضمار وليس للإظهار فيقال: ما هيه.

---

(١) طه ٧٨

(٢) الواقعة ٢٧، ٤١

(٣) نظم الدرر للبقاعي جـ٨ صـ٥١٣، وينظر البحر المحيط جـ٨ صـ٥٠٦، وحاشية الصاوي صـ٣٢٨

(٤) التحرير والتنوير جـ٣٠ صـ٥١٠

(٥) السابق جـ٢٩ صـ١١٤

ولكن التعبير القرآني آثر وضع الإظهار موضع الإضمار، زيادة في تعظيم شـأن القارعة وتفخيمها، والتأكيد على زيادة التهويل من أمرها، وإفادة مما تحتوي عليه من الأحوال التي تنبئ عنها القارعة.

وهذا زيادة على ما أضفاه الاستفهام من معنى التفخيم والتعظيم والتعجب.

وقد جلى هذا الأمر وأكده العلامة الشيخ زاده بقوله: "وضع الظاهر موضع الضمير تفخيما لشأنها، وتعظيما لهولها؛ فإن معنى التفخيم وإن كان مستفادا من الجملة الاستفهامية "إلا أنه إذا وضع الظاهر موضع الضمير يكون ذلك أدل عليه وآكد؛ فإن البلغاء يضعون الظاهر موضع الضمير في نظمهم ونثرهم لقصد التعظيم والتفخيم فيقولون: زيد ما زيد بدل أن يقال ما هو؛ لتعظيم شأنه وتفخيم أمره، فإن دلالة الظاهر على ما هو منشأ التعظيم والتهويل أكثر من دلالة الضمير عليه"[١] ويفهم من ذلك أن التفخيم مستفاد من جهتين: الأولى: الاستفهام، والأخرى من وضع الظاهر موضع المضمر وهو أدل وآكد من الاستفهام، والجمهور على أن إعراب "ما" اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ثان، و "الْقَارِعَةُ" خبر المبتدأ الثاني، والمبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول "الْقَارِعَةُ" والرابط تكرار المبتدأ بلفظه[٢]، وجملة "الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ" ابتدائية لا محل لها من الإعراب. وهناك من يرى أن إعراب "ما" خبر مقدم والقارعة مبتدأ مؤخر، ووجهة نظرهم أن محط الفائدة هو الخبر وليس المبتدأ؛ لذلك قدمت "ما" لتلفت الأنظار إلى عظم أمر القارعة.

يقول العلامة أبو السعود: "على أن ما الاستفهامية خبر القارعة مبتدأ لا بالعكس، لما مّر غير مرة أن محط الفائدة هو الخبر لا المبتدأ، ولا ريب في أن مدار إفادة الهول والفخامة ههنا هو كلمة "ما" لا "القارعة" أىّ أىّ شيء عجيب هي في الفخامة والفظاعة."[٣]

---

(١) حاشية الشيخ زاده جـ٤ صـ٥٣٥

(٢) ينظر البحر المحيط جـ٨ صـ٥٠٦، تفسير النسفي جـ٣ صـ ٣٨٥ كتاب إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم لابن خالويه صـ١٩٥- مكتبة المتنبي – القاهرة، و المحرر الوجيز لابن عطية الأندلسي جـ٥ صـ٣٥٦ /

(٣) تفسير أبي السعود جـ٦صـ٤٦٣، تفسير القاسمي جـ٧ صـ ٣٧٦ دار إحياء التراث- بيروت

وقد أكد ذلك في وضع الحاقة بقوله: " إن مقتضى التحقيق أن تكون "ما" الاستفهامية خبر لما بعده، فإن مناط الإفادة بيان أن الحاقة أمر بديع وخطب فظيع." [١] وقـد أشـار العلامة الألوسي إلى هذا الرأي ولكنه قال: "والأول هو المشهور" أي ما عليه الجمهـور؛ وهو أن "ما" مبتدأ ثانٍ والقارعة خبره والجملة خبر المبتدأ الأول "القارعة" وقد سـبق أن ذكرنا ما ذكره ابن حيان بأن "ما" على قراءة نصب الْقَارِعَة في الآية الأولى زائدة للتوكيد ولفظ القارعة الثانية: تأكيد لفظي للقارعة في الآية الأولى.

---

(١) السابق صـ٢٩٣.

" وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ " الآية (٣)

يريد المولى عز وجل بهذا الخطاب أن يبين لنبيه وللناس جميعا أن القارعة فوق كل إدراك وفوق كل تصور من البشر؛ وأنه لا يوجد أحد يدريه "صلى الله عليه وسلم" ويعلمه ماهية القارعة إلا الله عز وجل، ومن ثم كانت الإجابة بعد هذا الاستفهام بما يكون في القارعة من أحوال وأهوال، وليس عن ماهيتها، لأن ماهيتها أكبر من أن يحيط بها الإدراك، وأن يلم بها التصوير.

وهذا تأكيد على بشرية النبي " صلى الله عليه وسلم"، وأنه لا يرتقي إلى درجة العلم بالأمور الربانية، وأنه لا يعلم أحد الغيب المطلق إلا الله الذي يملك مفاتح الغيب وحده.

كما تؤكد الآية بالدليل القاطع والبرهان الساطع على أن هذا القرآن من عند الله، وليس من عنده

و "أدراك" من الدراية وهى المعرفة المدركة بضرب من الختل، قال: دريته ودريت به درية، نحو: فطنت وشعرت[١] درى الشيء: علمه؛ دريت الشيء: عرفته، أدريته" أعلمته، أدراه به: أعلمه.

وإذا كان الاستفهام في الآية السابقة "مَا الْقَارِعَةُ" أفاد التعظيم والتهويل والتعجب؛ فإنه هنا أفاد زيادة في التهويل ومبالغة في التعظيم وآكد في التعجب من شأنها؛ كما أنها أوقعت في الحس الشعور بقدرة الله عز وجل وضآلة قدرة البشر مما لا يدع مجالا للشك. وقد جعل العلامة الطاهر بن عاشور الخطاب في قول تعالى: "وما أدراك" لغير معين، فقال: "والخطاب في "أدراك" لغير معين، أي وما أدراك أيها السامع.

والمعنى: القارعة أمر عظيم لا تدركون كنهه، على غرار ما قال في "وما أدراك ما الحاقة"، كما جعل التركيب في قوله: "وما أدراك" جاريا مجرى المثل فلا يغير عن هذا اللفظ؛ وهذا ما جعله يذكر أن الخطاب هنا لغير معين.

وأرى أن الخطاب لمعين وهو النبي "صلى الله عليه وسلم" وهو ما عليه جمهور المفسرين.

وإذا كانت الآية تنفي علم الرسول"صلى الله عليه وسلم" بماهية القيامة؛ فإنه من باب أولى أن يكون النفي عاما لجميع البشر. فيكون الخطاب يقينا له"صلى الله عليه وسلم"، وضمنا لسائر البشر.

---

(١) المفردات في غريب القرآن مادة: دري، كتاب الجمهورية-دار التحرير للطبع والنشر ١٩٩١.

ومما يؤكد أن الخطاب للنبي "صلى الله عليه وسلم" ما قلته سابقا من تأكيد الآية على بشريته "ﷺ" والتأكيد على أن القرآن من عند الله وليس من عنده. ومن ثم يكون الخطاب للنبي "ﷺ" أولى من جعله لغير معين.

والاستفهام في "ما أدراك" ليس على حقيقته؛ وإنما الغرض منه التفخيم والتعظيم والتهويل على طريقة المجاز المرسل، لوجود تلازم بين الاستفهام وبين التعظيم والتهويل.

كما مر في قوله تعالى: " مَا الْقَارِعَةُ" وإن أفاد التكرار هنا زيادة في التعظيم والتهويل عمافي قوله تعالى: "مَا الْقَارِعَةُ".

ولا يمنع أن يكون الاستفهام إنكاريا، أي أنك لا علم لك بكنهها وشدة عظمها(١). فالاستفهام بهذا ينكر على الرسول وعلى كل بشر أنه يعلم حقيقة القارعة وماهيتها.

وعلى هذا الاعتبار لا يخلو من معنى التهويل والتعظيم أيضا.

ويقول الشهاب "أنه كنى بالاستفهام فيه عن لازمه، وهو أنها لا تعلم ولا تصل إليها دراية دارٍ."(٢)

ويوضح العلامة الرازي كيف أفاد التكرار في قوله تعالى: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ" زيادة في المعنى على قوله: "الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ" في الآية الثانية.

"قلنا قد حصل لنا بهذا الخبر علم زائد؛ لأنا كنا نظن أنها قارعة كسائر القوارع، فبهذا التجهيل علمنا أنها قارعة فاقت القوارع في الهول والشدة... كأنه تعالى قال: قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليست بقوارع، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار؛ لذلك قال في آخر السورة "نَارٌ حَامِيَةٌ" تنبيها على أن نار الدنيا في جنب تلك ليست حامية، وصار آخر السورة مطابقا لأولها من هذا الوجه.(٣)

إذاً التكرار في القرآن لا يخلو من فائدة، وهذا رد على الذين يعيبون التكرار في القرآن ويجعلونه حشوا وزيادة يمكن الاستغناء عنه.

ويقول الإمام السيوطي عن التكرير "وهو أبلغ من التأكيد، وهو من محاسن الفصاحة خلافا لبعض من غلط، وله فوائد منها: التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر..

---

(١) ينظر حاشية الصاوي جـ٣ صـ٢٢٨، والتحرير والتنوير جـ٢٩ صـ١١٤.

(٢) حاشية الشهاب جـ٨ صـ٢٣٥، روح المعاني جـ٢٩ صـ٤٠.

(٣) التفسير الكبير للرازي جـ٣٢ صـ٦٨بتصرف.

ومنها التأكيد، ومنها زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول..

ومنها: التعظيم والتهويل نحو -الحاقة ما الحاقة- الْقَارِعَةُ مَا الْقَارِعَةُ-[١] وجملة "أدراك" في محل رفع خبر المبتدأ "ما"، والواو عاطفة، و"القارعة" خبر "ما".

وجملة "مَا الْقَارِعَةُ" في محل نصب مفعول به ثان للفعل أدراك، والكاف في "أدراك" المفعول الأول.

الفرق بين "ما أدراك" و بين "ما يدريك"

* لماذا عبر القرآن في هذا الموضع بقوله: "وما أدراك" ولم يقل "وما يدريك" ؟

يقول الراغب " كل موضع ذكر في القرآن "وما أدراك" فقد عُقِّب ببيان نحو: " وما أدراك ما هيه نَارٌ حَامِيَةٌ.، وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر"[٢].

وكل موضع ذكر فيه "وما يدريك" لم يعقب بذلك [أي ببيانه] "وما يدريك لعله يزكى"، "وما يدريك لعل الساعة قريب"[٣] أي أن ما بعد "وما أدراك" فيه إخبار عنه بالدراية والعلم عنه، وما بعد "وما يدريك" فهو مما لم يعلمه ولم يخبر به[٤].

ويعقب العلامة الطاهر بن عاشور على ما سبق بعد أن ذكر حديث ابن عباس رضي الله عنه "كل شيء من القرآن من قوله: "وما أدراك" فقد أدراه، وكل شيء من قوله: "وما يدريك" فقد طوي عنه"[٥].

والمتأمل في تركيب "وما أدراك" وما يدريك" يلحظ أن معظم سياقات هذا التركيب جاءت مقترنة بذكر الساعة وأوصافها وأسمائها وما يدور في فلكها من لوازمها مثل ذكر النار والجنة.

فمما جاء مع القيامة وأسمائها:

قوله تعالى: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ"[٦]، "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ"[٧] وقوله: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ"[٨] " وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ"[٩].

---

(١) الإتقان جـ٢ صـ٨٦ وما بعدها.
(٢) المفردات في غريب القرآن مادة دري جـ١ صـ١٦١ كتاب الجمهورية- دار التحرير للطبع والنشر ١٩٩١
(٣) السابق مادة دري.
(٤) ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي بتصرف جـ١٨ صـ١٦٧.
(٥) التحرير والتنوير جـ٢٩ صـ١١٤.
(٦) الحاقة آية ٣
(٧) القارعة آية ٣
(٨) الانفطار آية ١٧/١٨
(٩) المرسلات آية ١٤

فقد جاء التركيب مع: الحاقة، والقارعة، ويوم الدين، ويوم الفصل.

أما ما جاء في سياق ذكر النار والجنة:

فقوله تعالى: " وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ"[١]، وقوله: " وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ"[٢]، وقوله: " وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ "[٣]، وقوله: " وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ"[٤] على رأي من جعل"سجين" مكان جهنم وهي أسفل السافلين.

ومن جعلها "كتاب مرقوم" فهو كتاب فيه تفسير ما كتب عليهم من المصير إلى سجين.

وكذلك قوله: "وما أدراك ما عليون"[٥] فهو مكان عال في الجنة.

فعلى كل التفسيرات هي أمور متعلقة بالقيامة.

كما جاء التركيب مقترنا بليلة القدر وهي موصلة_ أيضا_ إلى الجنة "وما أدراك ما ليلة القدر"[٦]

وأما تركيب "وما يدريك" فجاء معظمه مرتبطا بذكر الساعة كما جاء في قوله تعالى: " وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا "[٧].

وقوله تعالى: " وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ "[٨]

وأما الموضع الثالث والأخيرفقوله تعالى: "عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى "[٩].

فالمقام هنا: أن الذي جاء إلى النبي "صلى الله عليه وسلم" من أجل أن يزكي نفسه ويطهرها، ولا شك أن تزكية النفس وتطهيرها من الذنوب بالعمل الصالح موصل إلى الجنة، وهي من لوازم القيامة بجانب النار.

---

(١) المدثر آية ٢٧
(٢) القارعة آية ١٠
(٣) الهمزة آية ٥
(٤) المطففين آية ٨
(٥) المطففين آية ١٩
(٦) القدر آية ٣
(٧) الأحزاب آية ٦٣
(٨) الشورى آية ١٧
(٩) عبس آية ٣

وقوله تعالى: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ" أظهر القارعة مرة ثانية والمقام للإضمار " وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ " وهذا الإضمار في مقام الإظهار لزيادة التهويل والتفخيم والتعظيم كما مر في الآية الثانية "مَا الْقَارِعَةُ".

وقد تكرر لفظ "القارعة" ثلاث مرات في الآيات الثلاث الأولى، ولهذا التكرار بلاغته؛ فقد أفاد زيادة في التأكيد وزيادة في تقرير التفخيم والتعظيم والتهويل من شأن القارعة في ذهن القارئ؛ وهذا من شأنه أن يهيئ القارئ لتحمل ما يعرفه عن بعض أحوالها وصفاتها في الآيات القادمة. كما أفاد التكرير التشويق؛ لأنه في كل مرة تتطلع النفس إلى معرفة مَا الْقَارِعَةُ، ومن ثم تنتظر الإجابة في لهفة وشوق، وذلك من لطيف المحاورات التي تشوق المخاطب لمعرفة ودراية شيء ما.

"وهذا على طريقة العرب فإنهم إذا أرادوا تشويق المخاطب لأمر أتوا بصيغة الاستفهام يقولون: أتدري ماذا حدث؟ والآية من هذا القبيل زيادة في التعظيم والتهويل كأنه قال: إنها شيء مريع وخطب فظيع."(١)

ونلحظ الترقي في عنصر التشويق وعنصر زيادة التفخيم والتعظيم، ومن ثم زيادة التهويل من شأن القارعة؛ فقد بدأت الآية الأولى بكلمة واحدة "الْقَارِعَةُ" ثم زادت في الترقي إلى كلمتين في الآية الثانية "مَا الْقَارِعَةُ" ثم وصل التشويق والتفخيم والتعظيم ذروته في الآية الثالثة مصحوبا بعدم دراية ماهيتها في أربع كلمات "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ".

وتلك بلاغة القرآن في حسن البيان عن تصوير هذا الهول وهذا الفزع الناتج عن القارعة وأهوالها؛ مبرزا تعظيمها وتفخيمها بأساليب متنوعة ومتعددة.

فبدأ بلفظ الْقَارِعَةُ منفردا وقد بينا جرسها وما توحيه هذه الكلمة من دلالات، وتكرارها ثلاث مرات وأتبعها بالاستفهام الذي تكرر ثلاث مرات _أيضا_، وجاء الإظهار في مقام الإضمار مرتين، وتوجيه الخطاب في قوله: "وما أدراك" وتأجيل الجواب إلى الآية الرابعة في قوله تعالى: "يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ".

ولا شك أن هذا الحشد يناسب عظم الموقف، ولا ننسى دور إيقاع الفواصل في التأثير العميق بموقف القارعة والإحساس بأن القارئ يعيش في جو مرعب مخيف؛ يتحوطه الفزع والهلع من كل جانب وهكذا هي القيامة القارعة التي تقرع كل ما في الكون.

---

(١) تفسير القاسمي جـ١٦ صـ١٦٨، وتفسير الصابوني جـ٣ صـ٣٠٨

"يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ" الآية (٤)

بعد تفخيم القارعة وتهويلها في الآيات السابقة، وبعد التشويق لمعرفتها؛ جاء البيان عنها بذكر بعض ما يكون فيها من مشاهد وأحوال، ولم يبن عن ماهيتها؛ لأن ماهيتها فوق كل إدراك وفوق كل تصور.

أي أن هذا القرع الذي يصيب الناس بالهلع والفزع، يحدث يوم يكون حال النـــاس وهم يخرجون من أجداثهم في حيرة واضطراب وذهول وذلة وضعف، كحـــال الفــراش المُهَيَّج بعد سكون وخفاء؛ فيسير في كل اتجاه في حركة مضطربة في غير انتظام.

وكلمة "يوم" هنا فيها تجهيل لأنه غير معلوم زمنه، وقد كثر السؤال عن تحديده في آيات آخري، قال تعالى: " وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"[(١)] وقال: "يَسْــأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا"[(٢)].

وجملة "يوم يكون الناس" مع متعلقها المحذوف بيان للإبهامين اللذين في قوله: "مَا الْقَارِعَةُ" وقوله: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ".

"والمقصود بهذا التوقيت زيادة التهويل بما أضيف إليه "يوم من الجملتين المفيــدتين أحوالا هائلة؛ إلا أن شأن التوقيت أن يكون بزمان معلوم، وإذ قد كان هذا الحال الوقــت بزمانه غير معلوم مداه؛ كان التوقيت له إطماعا في تعيين وقت حصوله إذ كانوا يسألون متى هذا الوعد؟ ثم توقيته بما هو مجهول يعد إبهامــا آخــر للتهويــل والتحــذير مــن مفاجأته."[(٣)]

ومن ثم كانت دلالة "يوم" أشد تهويلا وتفخيما مما سبق؛ لأن النفس ازدادت شــوقا إلى معرفة القارعة بعد الاستفهام في الآيات السابقة.

و"يوم" منصوبة على الظرفية، وعامل النصب محذوف دل عليه القارعــة، وقيــل منصوب بإضمار: اذكر؛ كأنه قيل بعد تفخيم أمر القارعــة وتشــويقه _عليــه الصــلاة والسلام_ إلى معرفتها: اذكر يوم يكون الناس ...إلخ فإنه يدريك ما هي.[(٤)]

---

(١) يونس٤٨، النمل٧١، الأنبياء ٣٨، سبأ٢٩، يس٤٨، الملك٢٥.

(٢) النازعات ٤٢.

(٣) التحرير والتنوير ج٣٠ صـــ ٥١١، ٥١٢.

(٤) تفسير الألوسي صـــ٢٢٠.

"وقرأ زيد بن على "يومُ يكون" مرفوع الميم أي: وقتها يومُ يكون الناس كـــالفراش المبثوث"[١].

والتعبير ب "يكون" أفاد استحضار الصورة ؛"لأن المضارع يحضر صورة الحدث، سواء أكانت في زمن الماضي أو في المستقبل؛ لان دلالته الزمنية عنـــد المحققـــين هـــي الحال." [٢].

لماذا آثر التعبير القرآني ذكر كلمة"الناس" دون كلمة "الإنسان"؟

و"الناسُ" اسم كان، أو فاعل كان إذا كانت تامة، والأول أشهر، وذكر "الناس" هنا، دون ذكر "الإنسان" في العاديات؛ لأن الحديث في العاديات عن صفات وطبيعة الإنســـان من كونه كنودا بنعمة ربه، وكونه شديد الحب للمال، وإن كان ليس كل الناس كذلك.

فكلمة الإنسان تذكر في الغالب عند الحديث عن خَلقة وخِلقتـــه وخُلقـــة وطباعـــه وصفاته.

مثل قوله تعالى: "وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا"[٣]، وكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا"[٤]، "وَكَانَ الْإِنْسَـــانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا"[٥].

"وسمي الإنسان بذلك؛ لأنه خُلق خِلْقَة لا قوام له إلا بإنس بعضهم ببعض؛ ولهذا قيل الإنسان مدني بطبعه من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنـــه أن يقـــوم بجميـــع أسبابه، وقيل سمي بذلك لأنه يأنس بكل ما يألفه"[٦].

أما كلمة "الناس" هنا لا يقصد الحديث عن صفات بعينها؛ ولكن الحديث حـــول مـــا يكون عليه كل الناس، بل والكائنات كلها؛ عندما تخـــرج الأرض أثقالهـــا. فكـــل النـــاس سيخرجون من قبورهم بالحالة والهيئة التي وصفتها الآية، ومن ثم كان ذكر الناس أبلـــغ من ذكر الإنسان، لأن الناس يقتضي النوس، وهو الحركة[٧] والحركة واضحة جلية عنـــد خروج الناس من قبورهم.

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ج٨،صـــ٥٠٦.
(٢) من أسرار التعبير القرآني لسورة الأحزاب د.أبو موسى صـــ٤٠١ الطبعة الثانية ١٤٦-١٩٩٦ مكتبة وهبة.
(٣) الإسراء ١١.
(٤) الإسراء ١٠٠.
(٥) الكهف ٥٤.
(٦) المفردات في غريب القرآن مادة أنس جـــ١ صـــ٢٨.
(٧) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري صـــ٣٠٩ تحقيق محمد باسل عيون السود_دار الكتب العلمية بيروت_الطبعة الثانية ١٤٢٤هـــ/ ٢٠٣م.

أما في العاديات فليس كل الناس يكفرون بنعمة الله أو يجحدونها.

وكذلك ليس كل الناس شديدي الحب للمال، ومن ثم كان ذكر الإنسان هو الأنسب دون الناس.

ما المقصود بالفراش هنا؟ ولماذا قيده بالمبثوث؟

لقد اختلف في تحديد الفراش وإن اتفق على الغرض من التشبيه به.

جاء في لسان العرب "والفراش: دواب مثل البعوض تطير، واحدتها: فراشة" والفراشة: التي تطير وتتهافت في السراج، والجمع فراش.

وقال الزجاج في قوله عز وجل: "يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ" قال: الفراش ما تراه كصغار البق يتهافت في النار، شبه الله عز وجل الناس يوم البعث بالجراد المنتشر وبالفراش المبثوث؛ لأنهم إذا بعثوا يموج بعضهم في بعض كالجراد الذي يموج بعضه في بعض.

وقال الفراء: يريد كالغوغاء من الجراد يركب بعضه بعضا، كذلك الناس يجول يومئذ بعضهم في بعض. وقال الليث: الفراش الذي يطير وأنشد

أودى بحملهم الغياش فحلمهم   حلم الفراش غشين نار المصطلي

وفي المثل: أطيش من فراشة.وفي الحديث: فتتقارع بهم جنبة الصراط تقارع الفراش.وهو بالفتح الطير الذي يلقي نفسه في ضوء السرج.[١]

وحددته بعض المعاجم بأنه: "جنس حشرات من فصيلة الفراشات ورتبة حرشفيات الأجنحة، ملون أحيانا تلوينا جميلا، وهو: الحشرة الكاملة التي من خصائصها الامتصاص تسهم كسائر الحشرات في تلقيح الزهور."[٢]

وهذا التحديد مهم؛ فقد حدد جنس الفراش، وهو من جنس الحشرات، وكذلك ذكر شيئا مهما يتماشى مع الآيات التي معنا وهو ذكر اللون؛ فهو ملون أحيانا تلوينا جميلا؛ وهذا يتناسب مع الألوان الموجودة في الجبال وفي العهن، وسنعرض لهذا بعد قليل.

---

(١) لسان العرب مادة: فرش.

(٢) المنجد في اللغة والأدب والعلوم مادة: فرش_لويس معلوف ط١٩ المطبعة الكاثولكية–بيروت–لبنان.

إذاً من كل ما سبق رأينا مَنّ جعل الفراش من الطيور، ومنهم من جعلها من الحشرات، ومنهم من جعلها نوعا من الجراد، ومنهم من جعلها دوابا مثل البعوض، ومنهم من جعلها كصغار البق.

وأرى أنه جنس حشرات من فصيلة الفراشيات التي يطير.

وإن كان الاتفاق على أن الفراش يطير ويتهافت على النار وضوء السراج ويموج بعضه في بعض في غير انتظام ولا هدى، وفي حيرة واضطراب.

وسمي الفراش فراشا لأنه يفترش؛ أي يرفرف على الشيء.

ويقال: فرش الطائر تفريشا إذا جعل يرفرف على الشيء. تفرش الطائر: رفرف على الشيء وبسطها ولم يقع.(١)

واختيار كلمة الفراش، لأنها فيها معنى عدم الاستقرار والحيرة والاضطراب، وهذا يناسب حال الناس عند خروجهم من الأجداث.

دلالات كلمة المبثوث:-

وأصل البث: التفريق وإثارة الشيء؛ كبث الريح التراب. وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والشّر.

يقال: بثثته فانبث، ومنه قوله عز وجل: "فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا"

وقوله: "وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ" إشارة إلى على إيجاده تعالى ما لم يكن موجودا وإظهاره إياه.

وقوله تعالى: "كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ" أي المُهَيَّج بعد سكونه وخفائه.(٢)

وفي لسان العرب: بث الشيء والخبر يبثه بثا، وأبثه بمعنى فانبثت: فرقه فتفرق ونشره، وانبث الجراد في الأرض: انتشر، وخلق الله الخلق فبثهم في الأرض، أي نشر وكثّر.

وبثثت التراب: استثاره وكشف عما تحته.

---

(١) لسان العرب والمنجد مادة: فرش.

(٢) المفردات في غريب القرآن مادة: بث.

و"البث" الحال والحزن، والبث: الحزن والغم الذي تفضي به إلى صاحبك. البث في الأصل: شدة الحزن والمرض الشديد. وبثثت الغبار: هيجته.[١]

مما سبق نستطيع أن نبين سر اختيار كلمة "المبثوث" دون غيرها.

نقول: إن في البث معنى التفريق وإثارة الشيء؛ ولنا أن نتخيل هذا المعنى في بث الريح للتراب، وكيف يعلو التراب فوق الرؤوس، ثم ينتشر في غير انتظام وفي غير جهة محددة.

وهذا يشبه تفريش الفراش عندما يرفرف بجناحيه ويبسطها ولم يقع كأنه يحوم فوق الرؤوس.

وإذا تأملنا معنى: إثارة الشيء ونظرنا إلى كلام الراغب: في تعريف الفراش المبثوث عندما قال: أي المُهَيَّج بعد سكونه وخفائه؛ ومن معاني التهيج: الذي ثار لمشقة وضرر. يؤكد ذلك مجيء كلمة "المبثوث" على وزن مفعول؛ وهذا يدل على أن غيره قد بثه ولم يكن طواعية منه. وهناك فرق في الدلالة بين أن ينتشر الفراش طواعية، وبين أن يُهيَّج ويُثار بعد سكون وخفاء؛ وفي ذلك دليل على سرعة انطلاقته في فجأة، مع شدة فزع واضطراب؛ وهذا ما عليه حال الناس عند خروجهم من قبورهم بعد سكون طويل وقبل أن يتبعوا الداعي.

و _أيضا_ من معاني البث هو إيجاد الله الأشياء وإظهارها بعد أن كانت غير موجودة.

وهذا ما ينطبق على إيجاد الله الناس أحياء من قبورهم؛ بعد أن كانوا غير موجودين ساعة قيام الساعة.

و _أيضا_ من معني البث: النشر مع التكثير وهو ما سيكون عليه الناس من الكثرة الكاثرة ساعة خروجهم من قبورهم.

يقول أبو هلال العسكري وقولك: "بث" يفيد تفريق أشياء كثيرة في مواضع مختلفة متباينة، ويُفَرّقُ بين كلمة "فرّق" وبين كلمة "بث" فيقول قولك: فرَّق يفيد أنه باين بين مجتمعين فصاعدا، وقولك: "بث" يفيد تفريق أشياء كثيرة في مواضع مختلفة متباينة، وإذا فرق بين شيئين لم يقل: "إنه بث" وفي القرآن: "وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ[٢]".

---

(١) لسان العرب مادة: بث.

(٢) لقمان الآية ١٠.

وكذلك من معاني البث: الحزن والغم؛ بل شدة الحزن والمرض الشديد؛ ولنا أن نتخيل حركة إنسان مريض حزين لمرضه عند قيام زلزال، وكل الناس يفرون من حوله؛ لاشك أن حركته كالسكران الذي يترنم من سكره في حركة مضطربة "وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى"(١).

ولا شك أن حالة من الحزن الشديد تنتاب الناس بعد خروجهم من قبورهم؛ لانشغالهم بما يؤول إليه مصيرهم المجهول.

وفي ذلك إشارة إلى الحالة النفسية والمعنوية التي سيكون عليها الناس من الحيرة والاضطراب؛ فإن الناس إذا بعثوا فزعوا.

ومما تجدر الإشارة إليه في كلمة "المبثوث": تكرار حرف الثاء مرتين في الكلمة، وهذا يفيد التفشي والانتشار.

كما أن الوقوف على الكلمة بالسكون يعطينا مدا عارضا للسكون بسبب الواو التي سبقت حرف الثاء الأخير؛ فأعطت طولا وامتدادا بجانب التفشي والانتشار فيؤكد الكثرة مع الانتشار. وتلك بلاغة الكلمة القرآنية وسر اختيارها في المقام المناسب، ومن ثم فهي مُصورِّة وشديدة الإيحاء بالمعنى المقصود، وتعين على تخيل الحدث.

من بلاغة التشبيه في الآية:

والتشبيه في الآية من التشبيه المرسل المجمل لوجود الأداة وحذف وجه الشبه.

وصورة التشبيه جمعت بين عالم الإنسان وعالم الطبيعة الحية المتحركة، وهو من جنس الحشرات.

وجاء المشبه به مقيدا بكلمة "المبثوث" ولهذا القيد بلاغته في التصوير وإتمام المعنى المراد، وقد بينا دلالة كلمة المبثوث وسر اختيارها؛ فلولا هذا القيد ما اكتملت الصورة.

وآثر التعبير القرآني الكاف دون "كأن" أداةً للتشبيه؛ لأن المقصود من التشبيه ليس تمام المطابقة بين الطرفين من كل الوجوه.

فأجساد الناس ليست كأجساد الفراش، وفصيلة الإنسان ليس من فصيلة الفراش، وأحوال وطبائع الإنسان، ليست كطباع الفراش، كما أن الفراش لا يعذب في الآخرة ولا

---

(١) الحج٢.

يحاسب؛ وكل الناس يحاسبون، ومن ثم ليس المقصود وهو تمام المطابقة، أو بيان قوة الشبه بين الطرفين؛ ولو كان المقصود تمام المطابقة لكانت "كأن" أولى بالمقام وأليق.

ووجه الشبه بين الطرفين يكمن في الكثرة والانتشار والضعف مع السير في غير انتظام، مع الحيرة والاضطراب في ذلة وهوان، فضلا عن تداخل بعضهم في بعض وهم يسرعون إلى إجابة الداعي من كل جهة.

اختلاف صورة الناس عند البعث بين صورة الفراش المبثوث والجراد المنتشر(١):

إذا كان الله عز وجل قد صور الناس في سورة القارعة عند بدء خروجهم من قبورهم بصورة الفراش المبثوث؛ فقد صورهم في معرض آخر في سورة "القمر" في قوله تعالى: "فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ. خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ"(٢).

والنظرة العجلى قد تتوهم في ذلك تعارضا وتناقضا؛ ولكن حاشى لله أن يكون الأمر كذلك؛ فهو كلام رب العالمين تحدى به الإنس والجن فأعجزهم وأبهتهم مجتمعين.

فمشهد الجراد المنتشر جاء بعد مشهد الفراش المبثوث؛ وقد دلت آية "القمر" على أن صورة الجراد كانت عند إجابة الداعي واتباعهم إياه.

وقد وضحت آية "طهٰ" ذلك المشهد وأكدته "يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا"(٣) لقد صور الله عز وجل الناس في آية "القمر" حالة كونهم: خشعا أبصارهم مهطعين إلى الداعي يسيرون في اتجاه معلوم نحو هذا الداعي.

أما آية "الْقَارِعَةُ" فقد صورت الناس عند خروجهم مباشرة من قبورهم وقبل إجابة الداعي؛ ومن ثم كانت وجهتهم غير معلومة وغير محددة؛ فيسيرون على غير هدى في شدة هلع وفزع، وقد بلغ الاضطراب والحيرة مبلغه فلا يدرون إلى أين يسيرون.

وهذه الحالة التي عليها الناس تشبه تماما حال الفراش المبثوث حينما ينتشر.

---

(١) الجراد: دويبة من مستقيمات الأجنحة، وأنواعها عديدة تختلف باختلاف الشكل والحجم؛ منها: ما يكثر ويغزو المزروعات والأشجار، بحيث لا يبقى على شيء. وسمي جرادا: لأنه يجرد الأرض أي: يأكل ما عليها من النبات فلم يبق منها شيئا. لسان العرب والمنجد مادة: جرد.

(٢) القمر٦، ٧، ٨.

(٣) طه ١٠٨.

يقول الرازي: "أما وجه الشبه بالفراش فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحـــدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى يدل هذا على أنهم إذا بعثوا فزعوا.[١]"

أما آية" القمر"فتصور الناس في مرحلة آخري وهم يتبعون الداعي وقد قلّ فــزعهم وخوفهم، ومن ثم خفت حيرتهم وهدأت نفوسهم شيئا عما كانت عليه من مشهد القارعــة؛ فكان سيرهم منتظما ووجهتم واحدة وهدفهم واحد وطريقهم معلوم؛ يقودهم الــداعي إلــى حيث أمره الله؛ وهذا من شأنه أن يخفف من صدمتهم الأولى عند بــدء خــروجهم مــن قبورهم.

يقول القرطبي: "فأول حالهم كالفراش لا وجه له، يتحير في كل وجه، ثم يكونــون كالجراد لأن لها وجها تقصده." [٢]

إذاً فرقٌ بين أن يسير الناس في طريق معلوم وهدف معلوم، وبين أن يسيروا فــي طريق مجهول بلا هدف معلوم؛ بالإضافة إلى الفرق بين حالة الاضطراب والهلــع فــي الصورتين.

---

(١) التفسير الكبير للرازي جـ٣٢ صــ٦٨، ٦٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن جـ١٨ صــ١١٣.

"وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ" الآية (٥)

بعد أن بين الله عز وجل المشهد الأول من أهوال القارعة؛ وهو حال الناس بعد خروجهم من أجداثهم كالفراش المبثوث؛ جاء بالمشهد الثاني من أهوال القارعة؛ وهي الصورة التي ستصير عليها الجبال يوم القيامة إثر هذه القارعة.

إن هذه الجبال الراسيات الشامخات التي كان يضرب بها المثل في الشموخ والثبات والعظمة في الخلق؛ ستتطاير وتتفرق أجزاؤها فتصير كالعهن المنفوش؛ ليؤكد على قدرته عز وجل، وليحذر الناس وينبههم بالدليل الساطع، وهو أنه إذا كانت الجبال في عظمتها وشموخها ستصير يوم القيامة كالصوف المتطاير؛ فما بالك أيها الإنسان الضعيف؟ ومن ثم يكون ذكر الجبال أعظم في التهويل من غيرها.

وأول ما يلفت النظر تكرار الفعل المضارع "تكون" وهذا التكرار لا يخلو من فائدة وغرض، فإن فعل التكوين في الحالتين مختلف؛ فالأول خاص بإيجاد الناس وإخراجهم من قبورهم أحياء، أما مع الجبال فيدل على محو وتغيير وإزالة، كما أن التكرار _أيضا_ فيه زيادة لفت وتنبيه فيكون بمثابة التحذير من أهوال القارعة(١).

وكذلك للمحافظة على الوزن بين جملة " يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ " وبين جملة "وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ" ولا يخفى أثر التناغم الموسيقي بين الفواصل.

وتصوير الجبال بالعهن المنفوش من التصوير الرائق الذي تشع منه دلالات وإيحاءات. فالصورة هنا مع تفرق الأجزاء وانتشارها في لين وضعف؛ تشتمل على تداخل الألوان في أجزائها.

فقد نص القرآن الكريم على وجود الألوان في الجبال؛ قال تعالى: " وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ"(٢).

وقد نص أهل اللغة وجمهور المفسرين على وجود الألوان في صورة المشبه به "العهن المنفوش" مما يؤكد دقة اختيار اللفظة القرآنية.

يقول ابن منظور: "العهن: الصوف المصبوغ ألوانا..قالوا: العهن الصوف الملون، وقيل: العهن الصوف المصبوغ أيَّ لون كان(٣)."

---

(١) ينظر في ذلك التفسير الكبيرللرازي صـ٦٩، والتحرير والتنوير جـ٣ صـ٥١٢.

(٢) فاطر ٢٧.

(٣) لسان العرب مادة: عهن.

ويقول الراغب: "العهن: الصوف المصبوغ قال تعالى:" كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ " وتخصيص العهن لما فيه من اللون[١].

وقال الزمخشري وأبو السعود والقرطبي والطبري والنسفي والرازي[٢]: بأن العهن هو الصوف المصبوغ ألوانا.

ويقول القرطبي: "ولا يقال للصوف عهن إلا أن يكون مصبوغا، وقيل العهن الصوف ذو الألوان؛ فشبه الجبال به في تلوُّنها ألوانا، والمعنى: أنها تلين بعد الشدة وتتفرق بعد الاجتماع. وقيل: أول ما تتغير الجبال تصير رملا مهيلا، ثم عهنا منفوشا، ثم هباءً منثورا."[٣]

مما سبق من أقوال أهل اللغة وجمهور المفسرين نستطيع أن نفرق بين العهن والصوف؛ بأن العهن هو الصوف المصبوغ ألوانا، وهذا أولى وأليق بالتشبيه لمناسبة الألوان الموجودة في الجبال والتي نص عليها القرآن الكريم.

ولتكتمل صورة تناسب الألوان في الآية بين الجبال وبين العهن المنفوش وبين الفراش المبثوث.

ولنا أن نتخيل الألوان التي اجتمعت في الفراش المبثوث، وفي الجبال، وفي العهن المنفوش؛ وكيف نتصورها وقد تفرقت أجزاؤها وبُثت وتطايرت؟

فسبحان من خلق، وسبحان من أبدع وصور!

وجاء المشبه به مقيدا بكلمة "المنفوش" ولا يخفى دلالة هذا القيد في إتمام التصوير وترسيخ المعنى في الأذهان.

فكلمة النفش تدل على التفرد والانتشار والتطاير في لين وضعف، ولكن كلمة النفش لها ارتباط وثيق بالصوف؛ لأن النفش في اللغة هو نشر الصوف، بل ذكر ابن منظور أن النفش هو الصوف، ثم قال: والنفش مَدُّك الصوف حتى ينتفش بعضه عن بعض، والنفش: هو ندف القطن والصوف.[٤]

---

(١) المفردات في غريب القرآن مادة: عهن.

(٢) ينظر الكشاف جـ٤ صـ٢٧٩ تفسير أبو السعود جـ٦ صـ٤٦٤، الجامع لأحكام القرآن جـ١٨ صـ١٨٤، جامع البيان للطبري جـ٣ صـ١٨٢، تفسير النسفي جـ٣ صـ٣٧٤، التفسير الكبير للرازي جـ٣٢ صـ٦٩.

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ١٨ صـ١٨٤.

(٤) اللسان مادة: نفش.

تلك بلاغة القرآن في دقة اختيار اللفظة القرآنية؛ بحيث لا تصلح كلمة أخرى في آداء المعنى وتصويره كالتي وردت في القرآن. إن كلمة "المنفوش" هي أقوى في الدلالة من غيرها على تصوير هذه الجبال الشامخات الراسيات بالخفة واللين والضعف والتطاير.

ومجيء كلمة "المنفوش" على هذا الوزن يدل على أن قوة خارقة للعادة هي التي صيرت الجبال من حال القوة والضخامة والثبات والصلابة إلى تفرق أجزائها وتطايرها في لين وضعف؛ يشبه ليونة الصوف المتطاير والقطن المندوف؛ ولا شك أنها قدرة الإله الخالق. ويمكن أن نضيف إلى ما سبق: إنه يفيد عنصر المفاجأة.

وذكر كلمة "المنفوش" فيه احتراس من كون العهن مبللا بالماء ونحوه؛ لأنه في هذه الحالة يكون ثقيلا ومتماسكا، ومن ثم لا يتطاير ولا تتفرق أجزاؤه؛ فدلت كلمة "المنفوش" على التفرق والانتشار، وأكدت خفته.

وإذا تأملنا البلاغة الصوتية في كلمة "المنفوش" فإننا نلحظ الوقوف على المقطع الأول من الكلمة بالسكون [المَنْـ] ثم الانتقال إلى المقطع الثاني بالمد [فُـو] كأنه تقسيم وتفريق لأجزاء الكلمة؛ وفي ذلك إشارة إلى تفريق الأجزاء في الجبال وفي العهن.

ثم إذا وقفنا على الحرف الأخير بالسكون مع وجود المد في حرف الواو قبله مع حركة ضم الفاء؛ يجعلنا نتخيل صورة التفشي والانتشار مع امتداده.

والتشبيه مرسل مجمل لوجود الأداة وحذف وجه الشبه. وقد سبق أن ذكرنا سر اختيار الأداة "الكاف" دون "كأن".

وجاء المشبه مفردا مطلقا، والمشبه به مفردا مقيدا، وصورة التشبيه، تشبيه محسوس بمحسوس، ومنبع الصورة من عالم الطبيعة.

أما وجه الشبه بين الجبال وبين العهن المنفوش فتكمن في وجود الألوان في الطرفين، بالإضافة إلى الضعف واللين والخفة والانتفاش والتفرق؛ وهذه صفات ثابتة في العهن، وهي من خصائصه.

أما الجبال فقد صورها الله عز وجل يوم القيامة بذلك في أكثر من موضع.

قال تعالى: " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا "(١).

وقوله: " وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا. فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا "(٢).

---

(١) طه ١٠٥.
(٢) الواقعة ٥، ٦.

بين آية المعارج، وآية القارعة

لقد صور الله عز وجل الجبال في آية المعارج بالعهن دون قيد معطوفة على تصوير السماء بالمهل " يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ"(١).

وقد فصل القول في ذلك وأوفاه حقه؛ صاحب كتاب: "لمسات بيانية"، فذكر ما يأتي:

أولا:أنه لما ذكر "الْقَارِعَةُ" في أول السورة، و"الْقَارِعَةُ" من القرع وهو الضربُ بالعصا، ناسبَ ذلك ذكر النفش، لأن من طرائق نفش الصوف أن يقرع بالمقرعة. كما ناسب ذلك من ناحية أخرى وهي أن الجبال تُهَشَّمُ بالمقراع (وهو من القرع) وهو فأسٌ عظيم تُحَطَّمُ به الحجارة، فناسب ذلك ذكر النفش _أيضا_. فلفظ "الْقَارِعَةُ" أنسب شيء لهذا التعبير. كما ناسب ذكر "الْقَارِعَةُ" ذكر "الفراش المبثوث" في قوله: "يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ" _أيضاً_؛ لأنك إذا قرعت طار الفراش وانتشر. ولم يحسن ذكر (الفراش) وحده كما لم يحسن ذكر (العهن) وحده.

ثانيا: إن ما تقدم من ذِكْرِ اليومِ الآخر في سورة القارعة، أهول وأشد مما ذكر في سورة المعارج فقد قال في سورة المعارج: "تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ . فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا . إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا " وليس متفقا على تفسير أن المراد بهذا اليوم، هو اليوم الآخر. وإذا كان المقصود به اليوم الآخر فإنه لم يذكر إلا طول ذلك اليوم، وأنه تعرج الملائكة والروح فيه. في حين قال في سورة القارعة: "الْقَارِعَةُ. مَا الْقَارِعَةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ" فكرر ذكرها وعظمها وهولها. فناسب هذا التعظيم والتهويل أن يذكر أن الجبال تكون فيه " كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ".

وكونها " كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ " أعظم وأهول من أن تكون "كالعهن" من غير نفش كما هو ظاهر.

ثالثا:ذكر في سورة المعارج أن العذاب (واقع) وأنه ليس له دافع " سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ . لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ " ووقوع الثقل على الصوف، من غير دفع له لا ينفشه بخلاف ما في "الْقَارِعَةُ"، فإنه ذكر القرع وكرره، والقرع ينفشه وخاصة إذا تكرر، فناسب ذلك ذكر النفش فيه _أيضاً_.

---

(١) المعارج ٨، ٩.

رابعا: التوسع والتفصيل في ذكر القارعة حسّن ذِكْرَ الزيادةِ والتفصيل فيها، بخلاف الإجمال في سورة المعارج؛ فإنه لم يزد على أن يقول: " فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ".

خامسا: إن الفواصل في السورتين تقتضي أن يكون كل تعبير في مكانه، ففي سورة "القارعة"، قال تعالى: "يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ" فناسب كلمة (المنفوش) كلمة (المبثوث).

وفي سورة المعارج قال: " يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ " فناسب (العهن) (المهل).

سادسا: ناسب ذكر " الْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ " _أيضاَ_ قوله في آخر السورة: "نَارٌ حَامِيَةٌ" لأن النار الحامية هي التي تُذِيبُ الجبالَ، وتجعلها كالعهن المنفوش، وذلك من شدة الحرارة، في حين ذكر صفة النار في المعارج بقوله: "كلا إنها لظى. نزاعة للشوى" والشوى هو جلد الإنسان. والحرارةُ التي تستدعي نزع جلد الإنسان أقلُّ من التي تذيب الجبال وتجعها كالعهن المنفوش، فناسب زيادة (المنفوش) في "القارعة" من كل ناحية. والله أعلم.

كما أن ذكر النار الحامية مناسب للقارعة من ناحية أخرى، ذلك أن (القَرّاعة) - وهي من لفظ "القارعة"- هي القدّاحة التي تُقدح بها النار.

فناسب ذكر "الْقَارِعَة"، ذكر الصوف المنفوش وذكر النار الحامية، فناسب آخر السورة أولها.

وبهذا نرى أن ذكر"الْقَارِعَة" حسّن ذكر (المبثوث) مع الفراش، وذكر (المنفوش) مع الصوف، وذكر النار الحامية في آخر السورة.(١)

لماذا جمع الله بين الناس والجبال في الآية؟

من المعلوم أن صورة الجبال يضرب بها المثل في الصلابة والقوة والارتفاع والشموخ؛ ومن ثم في الثبات والرسوخ، وهي من أهم الدلائل علي قدرة الله عز وجل.

---

(١) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل صـ١٩٨-٢٠٠- د.فاضل السامرائي- دار عمار- الأردن- الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ -٢٠٠١م.

قال تعالى: "أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ"(١).

كما أن الجبال كانت من أهم ما شغلت الكفار وغيرهم عن مصيرها وحالها يوم تبدل الأرض غير الأرض، ومن ثم سألوا رسول الله عنها.

قال تعالى: " وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا"(٢).

والإنسان أشرف المخلوقات في الكون؛ والجبال رمز للمجد والشرف والشموخ والعظمة، ومن ثم أراد الله أن يلفت عباده وينبههم، بل ويحذرهم بحال هذه الجبال العظيمة في الخلق؛ فإذا كانت هذه الجبال في عظمتها وصلابتها وارتفاعها تصير "كالعهن المنفوش" فما ظنك أيها الإنسان الضعيف؟ لا شك أن تأثيرها في الإنسان أشد وأقوى وأنكي.

كما أن ذكر الجبال أعظم في التهويل من غيرها، ومن هنا يأتي التأمل؛ فتكون العظة والاعتبار.

وإذا كان الإنسان في الدنيا أشرف الكائنات؛ فإنه لا يشفع له في الآخرة إلا عمله الصالح وثقل موازينه.

من ثم ذكر الجبال بما ستصير إليه "كالعهن المنفوش" يؤكد البعث؛ وذكر الناس دليل على الجزاء والحساب.

يقول الرازي: "إنما ضم بين حال الناس وبين حال الجبال، كأنه نبه على أن تأثير القرعة في الجبال؛ هو أنها صارت كالعهن المنفوش؛ فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها؟ فالويل ثم الويل لابن آدم، إن لم تتداركه رحمة ربه."(٣)

---

(١) الغاشية ١٧، ١٨، ١٩.

(٢) طه ١٠٥، ١٠٦.

(٣) التفسير الكبير جـ٣٢ صـ٦٩.

"فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ" الآية (٦)

بعد أن بين الله عز وجل أحوال الناس يوم القيامة حال خروجهم من قبورهم، ووصفهم بالفراش المبثوث؛ أخبر هنا تفصيلا عما يصير إليه الناس بحسب أعمالهم في الدنيا.

فذكر المولى: أن من رجحت موازينه بالحسنات باتباع منهج الله؛ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ في جنة عالية؛ وأما من خفت موازينه من الحسنات وثقلت بالسيئات نتيجة لاتباعه الباطل فقد هوت به سيئاته في نَار حَامِيَة.

والفاء في قوله: "فأما" للتفريع، أي أن ما بعدها تفرع عما قبلها.

و"أما" حرف تفصيل وشرط فيه معنى الإخبار والتقسيم. " مَنْ " شرطية، اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.

ولما كان المراد عموم الناس دون تخصيص بجنس أو عدد؛ آثر التعبير القرآني "مَنْ" دون "الذي" وغيرها من الأسماء الموصولات، كما آثر التعبير القرآني الفعل "ثقل" دون غيره؛ لأن "ثقل" تستخدم في الأجسام المادية والأمور المعنوية، كما أنها تفيد عظم وزن الأعمال عند الله.

يقول الراغب: "الثقل والخفة متقابلان فكل ما يترجح على ما يوزن به، أو يقدر به يقال: ثقيل، وأصله في الأجسام، ثم يقال في المعاني نحو: أثقله الغُرم والوزن... وقد يقال ثقل القول إذا لم يطب سماعه".

والثقيل والخفيف يستعملان على وجهين: أحدهما على سبيل المضايفة، وهو أن لا يقال لشيء ثقيل أو خفيف إلا باعتباره بغيره؛ ولهذا يصح للشيء الواحد أن يقال خفيف إذا اعتبرته بما هو أثقل منه، وثقيل إذا اعتبرته بما هو أخف منه وعلى هذه الآية: المتقدمة آنفا.(١)

وقد جعل الراغب قوله تعالى: " **فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ** " إشارة إلى كثرة الحسنات وإشارة إلى كثرة الخيرات.

---

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب مادة: ثقل.

وقوله تعالى: "وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ" إشارة إلى قلـــة الأعمـــال الصـــالحة وقلـــة الخيرات.(١)

وأكد ذلك الطاهر بن عاشور بقوله: "وثقل الموازين كناية عن كونه بمحل الرضـــا من الله تعالى لكثرة حسناته؛ لأن ثقل الميزان يستلزم ثقل الموزون؛ وإنما توزن الأشـــياء المرغوب في اقتنائها، وقد شاع عند العرب الكناية عن الفضل والشرف وأصالة الـــرأي بالوزن ونحوه، وبصدد ذلك يقولون: فلان لا يقام له وزن.".(٢)

ولما كان كل إنسانٍ يتحمل وزر نفسه _فقط_ كما قال تعالى: " وَلَـــا تَـــزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى "(٣)؛ أضاف الموازين إلى صاحبها فقال: "موازينه"، والضمير المضاف إليـــه في كلمة "موازينه" يعود إلى "مَنْ"، وقد أفرد هذا الضمير مراعاة للفظ.

سر مجيء كلمة "موازينه" جمعا دون الإفراد:-

جاءت كلمة موازينه جمعا باعتبار كثرة الأعمال الصالحة وتنوعها، وباعتبار تعدد الأوزان أو الموزونات؛ بأن يكون لأفعال القلوب ميزان، ولأفعـــال الجـــوارح ميـــزان، وللأقوال ميزان. أي أن الموازين جمعت للإنسان لما كانت له موزونات كثيرة متغيرة.

وقيل: لكل أمة من الأمم ميزان؛ وقيل الجمع :لاعتبار كثرة من توزن أعمالهم؛ لأن المراد إحاطة أنواع ذلك الجنس؛ لا إحاطة نوع واحد من أنواعه.

وقيل: الموازين جمع ميزان، وهو ميزان واحد، وذكره بلفظ الجمع مع أنه ميـــزان واحد؛ تعظيما له.

وقيل: إن العرب توقع لفظ الجمع على الواحد، فيقولون: "خرج فلان إلى مكة على البغال."(٤) ويقول الراغب في سر مجيء لفظ "الميزان" مفردا ومجيئه جمعا: ذكـــر فـــي مواضع الميزان بلفظ الواحد اعتبارا بالمُحاسِبْ، وذكر فـــي مواضـــع بـــالجمع اعتبـــارا بالمحاسَبين.(٥)

---

(١) السابق مادة: ثقل، خف.

(٢) التحرير والتنوير جــ٣٠ صــ٥١٣.

(٣) الإسراء آية ١٥.

(٤) التفسير الكبير للرازي جــ١٤ صــ٢٣، المحرر الوجيز جــ٥ صــ٥٧، حاشية شيخ زاده جــ٢ صــ ٢٢٨، جــ٤ صــ٦٨٩، حاشية الشهاب جــ٤ صــ١٥٢.

(٥) المفردات في غريب القرآن مادة: "وزن".

وجمهور المفسرين على أن كلمة "موازينه" إما أنهـا الموزونـات مـن الأعمـال الصالحة التي لها قدر وحظ عند الله، وإما أنها جمع ميزان، وثقله رجحانه.(١)

واختلف العلماء في كيفية وزن الأعمال، فمنهم من رأى أن الميزان حقيقة، وتوزن عليه الصحف التي كتبت فيها أعمال العباد، أو أن الأعمال تجسم في صورة محسوسـة؛ فتجسم حسنات المؤمن بصورة حسنة مضيئة، وتصور سيئات الكـافر بصـورة مظلمـة قبيحة، ويظهر نور في رجحان الحسنات، وظلمة في رجحان السيئات، أو أن الرجحـان يكون في كفة الميزان.

وذهب جماعة من العلماء على أن الوزن كناية عن العدل؛ بأن يذكر الأعمال ويراد القضاء بالعدل في أمر المجازاة عليها.(٢)

والأولى رأى الجمهور؛ لأنه لا وجه للعدول عن الحقيقة إلى المجـاز مـن غيـر ضرورة، ولورود الأحاديث النبوية الشريفة الدالـة علـى أن الميـزان حقيقـة، يقـول الرسول:صلى الله عليه وسلم "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميـزان"، ولقولـه صلى الله عليه وسلم: "الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميـزان"(٣) وغيرهـا مـن الأحاديث.

ونستطيع القول: بأن في القيامة وزنا وميزانا يزن الأعمال ويميز لكل عمل مقداره لقوله تعالى: " وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُـونَ"(٤) ولقولـه تعالى: " وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِـنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ"(٥). وكذلك كثرة الأحاديث النبوية الدالة على ذلك.

وهو وزن وميزان على الحقيقة؛ ولكن بكيفية لا يعلمها كنهها إلا الله عز وجل، فلا نسأل عن كيف يزن المولى الأعمال ولا كيف يقدر؛ لأنها من الأمور الغيبية التي لا يجوز فيها التفسير بالرأي، والتي لا يقطع فيها بقول.

وما قيل حولها اجتهادات تذكر فتشكر لمن صدقت نيته وخلصت في هذا الاجتهاد، وغفر الله لمن جانبه الصواب في ذلك، وجزى الله من وفق في اجتهاداته خير الجزاء.

---

(١) ينظر التفسير الكبير للرازي جـ٣٢ صـ٧٠، الكشاف جـ٢ صـ٦٨ طبعة دار الفكر، تفسير أبي السعود جـ٢ صـ٤٧٦، جـ٦ صـ٤٦٤.

(٢) ينظر التفسير الكبير للرازي جـ١٤ صـ٢٣، وتفسير أبي السعود جـ٢ صـ٤٧٥- حاشية شيخ زاده جـ٢ صـ٢٢٨، التحرير والتنويرجـ٨ صـ٢٩، الكشاف جـ٢ صـ٦٧، ٦٨، ٥٧٤.

(٣) رياض الصالحين للإمام النووي صـ٢٩٨ ،٢٩٩الحديث رقم١٤١١ و١٤١٦ مؤسسة المعارف- بيروت- ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(٤) الأعراف الآية ٨.

(٥) الأنبياء الآية ٤٧.

"فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ" الآية (٧)

هذه الآية توضح ثواب وجزاء من رجحت حسناته وثقل ميزانه بهذه الحسنات؛ بأنه يعيش في نعيم دائم لا مقطوع ولا ممنوع؛ لأنه الله قد رضي عنه حتى إن العيشة نفسها رضيت بهذا النعيم.

والعيشة في الحقيقة مرضية وليست هي الراضية، ولكن التعبير القرآني آثر إسناد الرضى إلى ضمير العيشة؛ لإفادة المبالغة في الرضا مع الإيجاز في القول، وليرسخ في الأذهان: كأن الرضا جاوز الإنسان الراضي إلى المرضي عنه وهو العيشة، وهذا ما يجعلنا نقول: إذا كانت العيشة راضية فكيف بصاحبها؟

وكذلك يظهر جمال لغة القرآن وسعتها وقدرتها على تجاوز حدود الحقيقة إلى الخيال، ومن ثم أعطى للتعبير جماله ورونقه.

وأسند الرضا إلى العيشة لتلبس الرضا بها من حيث وقوعه عليها: وهذا يعني أن المجاز هنا في الإسناد، وهو من المجاز العقلي وعلاقته المفعولية؛ أي أن الفاعل المجازي كان أصله مفعولا لهذا الفعل.وأصل التعبير: عيشة راضٍ عنها صاحبها.

ولا شك أن هذه الصياغة أكدت عظم النعيم الذي أعده الكريم لمن ثقلت موازينه من عباده المؤمنين؛ فرضوا بهذا النعيم وسعدوا به. ويبرز التعبير _أيضا_ أن العيشة شاركت هؤلاء الذين ثقلت موازينهم في هذا الرضا فكانت راضية.

وقد بين الإمام عبد القاهر الجرجاني بلاغة المجاز العقلي وجعله، كنزا من كنوز البلاغة بقوله: "وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان، وأن يجئ بالكلام مطبوعا، مصنوعا، وأن يضعه بعيد المرام قريب الإفهام"(١).

وإلى دقة مسلك المجاز العقلي أشار الخطيب القزويني في قوله: "واعلم أنه ليس كل شيء يصلح لأن تتعاطى فيه المجاز العقلي بسهولة، بل تجدك في كثير من الأمر تحتاج إلى أن تهيئ الشيء وتصلحه له بشيء تتوخاه في الفطن"(٢).

---

(١) دلائل الإعجاز صـ٢٩٥ تحقيق محمود شاكر مطبعة المدني الطبعة الثالثة ١٤٣٠هـ – ١٩٩٢م.

(٢) الإيضاح على البغية جـ١ صـ٦٧.

وقد حدت دقة مسلك المجاز العقلي ولطفه بالإمام السكاكي أن يدخل هذا النوع من المجاز في سلك الاستعارة بالكناية، فجعل العيشة في قوله تعالى: "فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ" مشبهة بالإنسان، ثم استعير لفظ العيشة إلى صاحبها على طريقته، فتكون معنى العيشة هو صاحبها، وعلى ذلك تؤول الجملة: فهو صاحب عيشة.

وقد رد عليه الخطيب القزويني على هذا الرأي بقوله: "وفيما ذهب إليه نظر؛ لأنه يستلزم أن يكون المراد بعيشة في قوله: "فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ." صاحب العيشة لا العيشة، وبما في قوله تعالي: "خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ " فاعل الدفق لا المني."(١)

وجعل ابن عطية معنى: "عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ " على النسب أي: ذات رضى، وعزي هذا القول للخليل وسيبويه.(٢)

وتتبعه في هذا الرأي :الرازي ،وأبو حيان، والألوسي. وإن جوز الألوسي أن تكون من المجاز العقلي أو الاستعارة المكنية.(٣)

وجعلها كل من:الشهاب، وأبو السعود، والنسفي بمعنى: ذات الرضا أو مرضية.(٤) وجعلها الصاوي من المجاز العقلي، وجوز أن تكون من المجاز المرسل.(٥)

وجعل الزركشي المجاز في لفظ "راضية" حيث يقول: وأما قوله تعالى: " فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ "، فقيل على النسب، أي ذات رضى وقيل: بمعنى مرضية وكلاهما مجاز إفراد لا مجاز إسناد؛ لأن المجاز في لفظ "راضية" لا في إسنادها؛ ولكنهم كأنهم قدروا أنهم قالوا: رضيت عيشته فقالوا: "عيشة راضية"(٦).

ولعل كثرة هذه الآراء واختلاف العلماء وعدم اتفاقهم على رأي واحد؛ هو دقة مسلك المجاز العقلي ولطفه كما ذكر الإمام عبد القاهر والخطيب القزويني.(٧)

---

(١) الإيضاح على البغية جـ١ صـ٧٠.

(٢) المحرر الوجيزج٥ صـ٥١٧.

(٣) التفسير الكبير للرازي جـ١٦ صـ٧٠، والبحر المحيط جـ٨ صـ٣٢٤، وتفسير الألوسي جـ٢٩ صـ٢٢٢.

(٤) تفسير البيضاوي جـ٢ صـ٦١٧، تفسير أبي السعود جـ٦ صـ٤٦٤، تفسير النسفي جـ٣ صـ٣٧٤.

(٥) حاشية الصاوي جـ٣ صـ٣٢٨.

(٦) البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم صـ٢٥٨_المكتبة العصرية_صيدا_لبنان.

(٧) دلائل الإعجاز صـ٢٩٥، ٢٩٦ – الإيضاح على البغية جـ١ صـ٦٧.

والذي تطمئن إليه النفس وترتاح هو جعل الآية من قبيل المجاز العقلي وعلاقته المفعولية؛ لأن المقصود من الآية هو إبراز عظم وقدر النعيم الذي أعده الله عز وجل لمن ثقلت موازينهم بالحسنات، وهذا من شأنه أنه يرغب كل إنسان في أن يحذو حذوهم ويحدث نفسه قائلا: إذا كانت العيشة ذاتها راضية فكيف بصاحبها الذي يتنعم فيها؟

ولما لا؟ فهو نعيم لم تره عين من قبل، ولم تسمع عنه أذن، ولم يخطر هذا النعيم على قلب بشر، بالإضافة إلى أنه نعيم دائم لا مقطوع ولا ممنوع.

فالآية جعلت العيشة راضية، ومن ثم رضى صاحبها آكد، ويستلزم من رضى العيشة ورضى صاحبها رضى الله عز وجل على صاحب هذه العيشة، ومن ثم جعل الله عز وجل من ثقلت موازينهم في آية آخري من المفلحين الفائزين. "فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"(١).

ولا شك أن المفلحين قد رضي الله عنهم ورضوا عنه؛ ولذلك يقول ابن خالويه: "وفاعله هاهنا بمعنى مفعوله، ومعناه: في عيشة مرضية؛ لأن أهلها يرضون بالعيشة في دار الخلود، فالقوم راضون والعيش مرضي"(٢).

وقوله تعالى: "فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ" جواب الشرط في الآية السابقة " فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ........".

والفاء تفيد التفريع والتعقيب؛ أي أن رضى العيشة نتيجة لثقل موازين صاحبها، والفاء واقعة في جواب الشرط، و"هو" ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ و "هو" مبتدأ، وجملة " فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ " في محل رفع خبر للمبتدأ، و "راضية" صفة لقوله "عيشة" وجملة " هُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَة " في محل رفع خبر المبتدأ "مَنْ" في قوله: " فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ ".

واختيار حرف الجر "في" يدل على أن صاحب النعمة تلبس فيها تلبس الظرف بالمظروف، وهذا يعني أن هذا النعيم قد حفه من كل جانب؛ فهو يعيش في داخل هذا النعيم السرمدي.

والتنكير في قوله: "عيشة" أفاد التعظيم والتفخيم، والمعنى في عيشة: أي عيشة هي.

---

(١) الأعراف ٨ ، المؤمنون ١٠٢.

(٢) إعراب ثلاثين سورة من القرآن لابن خالويه صـ١٦١.

وآثر التعبير القرآني كلمة "عيشة" دون غيرها؛ لأنها تدل على حال العيش الحسن وهيئته، يقول الراغب: " العيش حياة المختصة بالحيوان وهي أخص من الحياة؛ لأن الحياة يقال لها في الحيوان، وفي الباري تعالى، وفي الملك. ويشتق منه المعيشة لما يُتَعيش منه.."

وقال في أهل الجنة " فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ"، وقال عليه الصلاة والسلام: "لا عيش إلا عيش الآخرة"[١] ولكن أي عيشة هي؟ إنها العيشة العظيمة التي تشمل النعيم الدائم في الجنة. إنه العيش الحقيقي.

---

(١) المفردات في غريب القرآن مادة: عيش.

"وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ" الآية (٨)

توضح هذه الآية القسم الثاني من أقسام الناس يوم القيامة؛ فذكرت المقابل لمن ثقلت موازينهم بالحسنات. وهذا الصنف الثاني الذي خفت موازينهم من الحسنات وثقلت بالسيئات؛ لأنهم اتبعوا الباطل في الدنيا فأوقعهم في عذاب مقيم في نَار حَامِيَة.

فالآية عطفت على الآية السابقة بحرف "الواو" في قوله: "وأما من" وكرر قوله: "وأما من" للتأكيد على بيان المقابل للقسم الأول في الآية السابقة، والتأكيد على وجود فريقين؛ فريق في عيشة راضية، وفريق في نَار حَامِيَة.

ولما ذكر القرآن كلمة "ثقلت" مع الصنف الأول؛ جاء بقوله: "خفت" لتصح المقابلة بين الخفة والثقل.

وجملة: " خَفَّتْ مَوَازِينُهُ " صلة الموصول لا محل لها من الإعراب. ويمكن القول: بأن خفة الموازين هنا كناية عن غضب الله لكثرة سيئاتهم باتباعهم الباطل في الدنيا.

ويقول الرازي: إن الذي خفت موازينه هو الكافر؛ لقوله تعالى: " وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ."(١). ولا معنى لكون الإنسان ظالما بآيات الله إلا بكونه كافرا بها منكرا لها؛ فدل على أن المراد من هذه الآية أهل الكفر.

ويعلل لخفة موازينهم برجحان السيئات على الحسنات مستشهدا بقول أبي بكر الصديق_رضي الله عنه_ "وإنما خفت موازين من خفت موازينه باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحق لميزان يوضع فيه الباطل أن يكون خفيفا" وأكد هذا المعنى بقول مقاتل: "إنما كان كذلك لأن الحق ثقيل والباطل خفيف."(٢)

---

(١) الأعراف ٩.

(٢) التفسير الكبير للرازي جـ١٤ صـ٢٣، جـ٣٢ صـ٧٠.

"فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ" الآية (٩)

توضح هذه الآية عقاب من خفت موازينهم من الحسنات وثقلت بالسيئات وتبين شقاءهم وسوء حالهم وقبح مآلهم؛ فمأواهم في نارحامية.

وعبر القرآن عن المأوى والمآل والمستقر بالأم؛ لأن الأم تأوي أولادها وتضمهم إليها في كنفها.

يقول الراغب في معنى الآية وقوله تعالى: "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ" أي مثواه النار فجعلها أما له، قال وهو نحو "مأواكم النار".

ويقال لكل ما كان أصلا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه أُم، قال الخليل: كل شيء ضُم إليه سائر ما يليه يسمى أما، قال تعالى: " وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ " وذلك لكون العلوم كلها منسوبة إليه ومتولدة منه(١).

ولا شك أن النار ضمت إليها العاصين والمشركين كما تضم الأم أولادها.

أو أن نقول: شبه النار بالأم للعصاه؛ لكونها تهوي بهم وتضمهم إلي نفسها، كما تضم الأم أولادها إليها.

كما جعلت الأرض أُما باعتبار قرار المخلوقات عليها؛ كذلك صارت جهنم أُما للإنسان العاصي باعتبار قراره فيها.

يقول الألوسي: "وعبر عن المأوى بالأم على التشبيه بها؛ فالأم مفزع الولد ومأواه." وقيل: "شبه النار بالأم في أنها تحيط به إحاطة رحم الولد بالأم، وقيل المعنى: فأم رأسه هاوية في مقر جهنم لأنه يطرح فيها منكوسا. وقيل هي من قولهم: إذا دعوا على الرجل بالهلكة هوت أمه؛ لأنه إذا هو أي سقط وهلك" فقد هوت أمه ثكلا وحزنا.

ومن ذلك قول كعب بن سعد الغنوي:

هوت أمه ما يبعث الصبح غاديا　　　وماذا يرد الليل حين يؤوب

وفي الكشف: إنّ هذا أحسن ليطابق قوله سبحانه: " فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ " وما فيه من المبالغة، وقال الطيبي: إنه الأظهر وللبحث فيه مجال.(٢)

---

(١) المفردات في غريب القرآن مادة: أم.

(٢) تفسير روح المعاني جـ٢٩ صـ٢٢٢، وينظر الكشاف جـ٤ صـ٢٨٠، والتفسير الكبير للرازي جـ٣٢ صـ٧٠.

وجوز العلامة ابن عاشور أن تكون الأم هنا مستعمله في حقيقتها: "فالأم هنا يجوز أن تكون مستعملة في حقيقتها.. والكلام تمثيل لحال من خفت موازينه يومئذ بحال الهالك في الدنيا؛ لأن العرب يكنون عن حال المرء بحال أمه في الخير والشر لشدة محبتها ابنها؛فهي أشد سرورا بسروره، وأشد حزنا بحزنه.. ويقولون في الشر: هوت أمه" أي أصابه ما تهلك به أمه. وهذا كقولهم: ثكلته أمه في الدعاء.

ويجوز أن يكون "أمه" مستعارا لمقره ومآله؛ لأنه يأوي إليها كما يأوي الطفل إلى أمه، ويجوز أن يكون "أمه" على حذف مضاف، أي أم رأسه وهي أعلى الدماغ، و"هاوية" ساقطة من قولهم: سقط على أم رأسه، أي هلك.(١)

إذاً نفهم من كلام ابن عاشور: أنه جعل الأم في قوله تعالى: "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ" على الحقيقة استنادا لقول العرب، وجعلها مستعارة للمقر والمآل الذي يأوي إليه العاصي، كما يأوي الطفل إلى أمه.

وجعلها على حذف مضاف على معنى: أم رأسه ساقطة، استنادا لقول العرب: "سقط على أم رأسه" أي هلك، والرأيان الأخيران وردا في معظم كتب التفسير.

يقول ابن خالويه: إنما سميت جهنم أُما للكافر؛ إذ كان مصيره إليها ومأواه. وكل شيء جمع شيئا إليه وضمه فهو أُم له، من ذلك أُم الرأس: مجمع الدماغ، وأُم القرى: مكة، وأُم الكتاب: اللوح المحفوظ، وأُم القرآن: فاتحة الكتاب(٢).

وكما اختلف العلماء في معنى: "أُمه" كذلك تعددت الأقوال في المراد من "هاوية" فهي: اسم لجهنم، أي فمأواه جهنم، وهي: قعر جهنم، وهي اسم من أسماء النار؛ وسميت النار هاوية لأن صاحبها يهوي فيها، والهاوية: دركة من دركات النار، وهي الباب الأسفل من النار. ومنهم من جعل هاوية: بمعنى ساقطة، من قولهم: سقط على أُم رأسه.

وكلمة هاوية: من هوت تهوي هُويا، فهي: هاوية، وهي اسم فاعل من هوي.

والمادة اللغوية المشتقة منها كلمة "هاوية" تدل على معنى السقوط المادي والمعنوي.

يقول الراغب "والهُوِيُّ" سقوطٌ من عُلْوٍ إلى سُفلٍ، وقوله عز وجل: "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ" قيل مثل قولهم: هوت أمه أي ثكلت، وقيل معناه: مقرّه النار، والهاوية هي النار.

---

(١) التحرير والتنوير جـ٣٢ صـ٥١٤، ٥١٥.

(٢) إعراب ثلاثين سورة من القرآن صـ١٦٢.

وقيل سمي ميل النفس إلي الشهوة "الهَوى" لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلــي كــل داهية، وفي الآخرة إلي الهاوية.... والهُوِيَّ: ذهاب في انحدار، والهَــوِيّ: ذهــاب فــي ارتفاع. ورأيتهم يتساقطون بعضهم في إثر بعض، وأهواه أي رفعه في الهواء وأســقطه قال تعالي: " وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى"(١).

إذاً دلالة الكلمة تدل على السقوط والانحدار في مكان سحيق، وهذا يتناسب مع من خفت موازينهم؛ فقد هوت بهم سيئاتهم في هاوية جهنم.

ومنهم من ذكرها من باب التجريد فيقول: "فالنار سميت الهاوية لغاية عمقها وبعــد مهواها. فقد روي أن داخلها يهوي فيها سبعين خريفا، وخصها البعض بالباب الأسفل من النار؛ فانتزع منها هاوية أخرى مثلها في شدة العمق وبُعد المهوى مبالغة في عمقها، وبُعد مهواها. والعلم عند الله تعالى.(٢)

إذاً من جعل "هاوية" هي النار، أراد أن يفرق بين "هاوية" التي هي النار، وبين "نَارٌ حَامِيَةٌ" فجعل النار الأولى في "هاوية" منتزعة من النار الثانية على سبيل التجريد، الــذي هو "أن ينتزع من أمر ذي صفة، صفة أخرى مثله في تلك الصفة مبالغــة فــي كمالهــا فيه."(٣)

والفاء في قوله: "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ" تفيد التعقيب والترتيب، وهي واقعة في جواب الشرط.

و"أُم" مبتدأ، وهي مضاف، والهاء ضمير متصل مبني على الضم في محــل جــر مضاف إليه.

"هاوية" خبر المبتدأ، والجملة جواب الشرط، والهاء في "فأمه" تعود على الذي خفت موازينه، والإضافة تفيد إلصاق الأمر به وليس غيره، والتنكيــر فــي "هاويــة" للتفخــيم والتهويل، وللدلالة على عمقها وبُعد مهواها.

وجاءت كلمة "هاوية" على وزن راضية موافقا لإيقاع الفاصلة بينهما، ولو جــاءت هاوية على صيغة أخرى لانكسر الإيقاع، ومن ثم يذهب التناغم الموسيقي بين الآيات.

---

(١) المفردات في غريب القرآن مادة: هوى.

(٢) ملحق أضواء البيان في إيضاح القرآن للشيخ محمد أمين الشنقيطي جــ١٠ صــ١٧٨، دار الحديث بالقاهرة ١٤٢٦هــ/٢٠٠٦م.

(٣) الإيضاح على البغية جــ٤ صــ٤٤.

وكذلك لو جاءت "مرضية" بدلا من "راضية" لما اتفقت في الإيقاع مع "هاوية"، ولكن ما جاء به القرآن غاية في الدقة والجمال الصوتي، وتلك هي البلاغة الصوتية للقرآن. وما أجملها من بلاغة؟

ولاشك أن المقابلة بين " مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ "، وبين " مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ "؛ أظهرت وأكدت ثواب الطائعين الذين ترتقي بهم حسناتهم وترفعهم إلى أعلى عليين؛ ينعمون بعيشة هنيئة راضية، كما أنها أكدت على عقاب العاصين الذين تهوي بهم سيئاتهم إلى الهاوية في قعر نَار حَامِيَة.

وفرق كبير بين فريق يرتقي ويصعد وينعم بالعيشة الراضية في جنة عالية مستحقا رضى الرحمن؛ وفرق بين فريق يهوي في مكان سحيق في دركات نَار حَامِيَة، ومن ثم العيشة الساخطة، فضلا عن سخط الله عليهم.

كذلك جاءت المقابلة للتأمل والاعتبار بالحالتين؛ فالعاقل الذي عنده بصيرة لاشك أنه يتمنى أن يكون من الصنف الأول؛ فيعمل على ثقل موازينه بالحسنات ليربح عيشة راضية في جنة عالية، وفي ذلك ترغيب لأهل الجنان.

وفي المقابل ترهيب وتنفير من السقوط في الهاوية في نَار حَامِيَة.

كما نلحظ قوة وتماسك الآيات في المقابلة من خلال أسلوب الشرط؛ فالذي يقرأ قوله تعالى: "فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ" يتشوق للجواب فيجد ثوابه في عيشة راضية، وتتطلع نفسه إلى معرفة المقابل فيقرأ "وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ" فتشرف نفسه لمعرفة الجواب _أيضا_ فيجده في قوله: "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ..."

كما نلحظ مجيء "الفاء" في الجوابين لتدل على سرعة التعقيب؛ وهو ما يتماشى مع حالة النفس المترقبة لمعرفة الجواب ومعرفة عاقبة كل طرف.

كما أن المقابلة بدأت في طرفها الأول بذكر من ثقلت موازينه وهي لتعجيل البشارة والترغيب؛ وكأنها دعوة للناس أن يكونوا من الطرف الأول من هذه المقابلة؛ وهو الطرف الحق الذي اتبع أوامر الحق في الدنيا، ويعد_أيضا_تكريما وتعظيما لهذا الصنف الذي عاش في طاعة الرحمن.

وإذا كانت الآيات قد قابلت بين قوله: "فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ"، وبين قوله: "وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ"، فأين المقابل لقوله تعالى: "فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ"؟ وأين المقابل لقوله تعالى: "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ"؟

نقول بأن المقابل موجود، ولكنه غير مصرح به يحتاج إلى تأمل في الآيات؛ وهذا ما يسمى بأسلوب "الاحتباك"، وهو أن يُحذف من أمرين متقابلين ما ذكر نظيره في الآخر لدلالة المذكور في كل منهما على المحذوف في الآخر.

وعلى هذا فقد حذف من الطرف الأول"فأمه الجنة" التي تقابل "فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ" وحذف من الثاني "في عيشة ساخطة" التي تقابل " فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ".

وقد جعل الإمام السيوطي أسلوب "الاحتباك" النوع الثالث من أنواع الحذف وعدّه ألطف الأنواع وأبدعها، وأشار إلي قلة من تنبه له أو نبه عليه من أهل فن البلاغة.

كما أشار إلى بلاغته بقوله: "فهو أبلغ ما يكون من الكلام" لما فيه من الإحكام وتحسين أثر الصنعة وإكساب الكلام حسنا ورونقا.

ومأخذ هذه التسمية من الحبك الذي معناه الشدة والإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فحبك الثوب: سدّ ما بين خيوطه من الفُرج وشدّه وإحكامه، بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسن والرونق.

وبين السيوطي العلاقة بين المعنى اللغوي للاحتباك المأخوذ من حَبْك الثوب، وبين الاحتباك في الكلام فيقول: "وبيان أخذه منه أن مواضع الحذف في الكلام شبهت بالفُرج من الخيوط، فلما أدركها الناقد البصير يصوغه الماهر في نظمه وحوكه، فوضع المحذوف مواضعه كأن حائكا له مانعا من خلل يطرقه فسدّ بتقديره ما يحصل به الخلل مع ما أكسبه من الحسن والرونق."(١)

فضلا على أن في أسلوب الاحتباك قدحا للذهن، وإمعانا للفكر، وزيادة في الفائدة، ومن ثم يكون فيه إيقاظ للشعور.

ولا شك أن اجتماع المقابلة مصحوبة بأسلوب الشرط وأسلوب الاحتباك مع شدة عناية اختيار الألفاظ؛ هو غاية الإحكام في دقة الكلام، مما أكسب الأسلوب قوة في تماسك وترابط شديد؛ بحيث لو حذف منه حرف أو كلمة اختل الأسلوب وفسد المعنى المراد.

---

(١) الإتقان للسيوطي جـ٢ صـ٧٩، ٨٠ بتصرف.

وتلك بلاغة القرآن العالية الراقية.

والمقابلة أظهرت صنفين من الناس الأول: من ثقلت موازينه بالحسنات.

والثاني: من ثقلت موازينه بالسيئات، ولم تذكر من تساوت حسناته مع سيئاته.

يقول شيخ زاده: "ذكر الله تعالى من ترجحت حسناته على سيئاته ومن ترجحت سيئاته ،على حسناته، ولم يذكر من تساوت حسناته مع سيئاته؛ فلعله من أصحاب الأعراف."[(١)]

ولا يخفى أن ما جاءت به المقابلة في الآيات السابقة يعد من حسن التقسيم.

---

(١) حاشية شيخ زاده جـ٤ صـ٦٨٩.

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ(١١)"

بعد أن بين الله عز وجل عقاب من خفت موازينه، بقوله: "فَأُمُّــهُ هَاوِيَــةٌ" أراد أن يفخم أمرها، ويهول من شأنها، ويخوف الناس منها، فأوضحها بعد إبهامها وأخبر عنهــا بأنها: "نَارٌ حَامِيَةٌ"، وقد مرّ بنا بيان دلالة أسلوب قوله: " وَمَا أَدْرَاكَ " وبينا بلاغته عنــد قوله تعالى: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ".

ويرى أبو السعود أن قوله تعالى: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَــةٌ" تقريــر لقولــه: "هاوية" "فإنه تقرير لما يعد إبهاما، والإشعار بخروجها عن الحــدود المعهــودة للتفخــيم والتهويل وهي ضمير الهاوية"[١].

والضمير في قوله: "هيه" يعود على قولــه: "هاويــة" قــال بــذلك جماعــة مــن المفسرين[٢].

وذهب الزمخشري وتبعه الرازي وأبو حيان إلى أن الضمير يجوز أن يعود علــى "هاوية"، ويجوز أن يعود على "الداهية" وقالوا: إن الضمير يعود على "هاوية" إذا كانــت بمعنى دركة من دركات النار، يهوي إليها الكافر ويسقط ويهلك فيها.

وإذا كانت معنى "هاوية" غير ذلك؛ فإن الضمير يعود علي الداهية، كــأن تكــون بمعنى: "هوت أمه"؛ لأنه إذا هوي "أي سقط وهلك" فقد هوت أمه حزنا وثكلا.

وكأنه قيل: وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فقد هلك.[٣]

ويرى صاحب التحرير والتنوير أن ضمير "ماهيه" فيه "استخدام"؛ على أن يكــون المراد من "هاوية" أنها جهنم أو اسم لجهنم، أو على حذف مضاف، أي أم رأسه هاويــة، بمعنى سقط على أم رأسه"؛ يكون في الضمير "استخدام"؛ إذ مُعاد الضمير وصف هالكة، والمراد منه اسم جهنم.كما في قول معاوية ابن مالك الملقب معوذ الحكماء

إذا نزل السماء بأرض قوم　　　　رعيناه وإن كانوا غضابا[٤]

---

(١) تفسير أبي السعود جـ٦ صـ٤٦٥.

(٢) تفسير أبي السعود جـ٦ صـ٤٦٥، تفسير النسفي جـ٣ صـ٣٧٤، حاشية الشيخ زاده جـ٤ صـ٦٨٩، تفسير زاد المسير في علم التفسير جـ٨ صـ٢١٦.

(٣) الكشاف جـ٤ صـ، التفسير الكبير للرازي جـ٣٢ صـ٧٠، ٧١.

(٤) التحرير والتنوير جـ صـ٥١٥.

والهاء في قوله: " مَا هِيَهْ " للسكت لنتبين بها حركة الياء قبلها، ولتخفف اللفظ عند الوقوف عليه، وهي مثل الهاء الموجودة في قولـــه تعـــالى: حســـابيه""كتابيه"،" "ماليـــه"، "سلطانيه"،الحاقة آية ٢٠_٢٥_٢٨_٢٩.

و"ما" في قوله: "ماهيه" حرف استفهام مبني على السكون في محـــل رفـــع مبتـــدأ. و"هي" ضمير رفع منفصل مبني على الفتح في محل رفع خبر المبتدأ، والهاء: للســـكت، وحذفها في الوصل ابن أبي اسحاق والأعمش وحمزة، وأثبتها الجمهور.[١]

وجملة: "ماهيه"في محل نصب مفعول به ثان لفعل أدراك.

---

(١) البحر المحيط جـــ٨ صـــ٥٠٧.

"نَارٌ حَامِيَةٌ" (١١)

وقوله: "نَارٌ حَامِيَةٌ" بيان للإبهام في قوله: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ" والأصل: هي "نَـــارٌ حَامِيَةٌ" حذف الخبر "المسند إليه" للإسراع بذكر كلمة "نار" لقصد الترويع والإيلام، وكذلك للاختصار، وصيانة الجملة من الثقل، وفرق بين أن تنتقل من قوله: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَـــهْ" قائلا: "نَارٌ حَامِيَةٌ" وبين أن نقول: هي نَارٌ حَامِيَةٌ، لاشك أن ما جاء به الذكر الحكيم أخف في الانتقال وأسهل.

وقد بين الإمام عبد القادر بلاغة الحذف بقوله: "هو باب دقيــق المســلك، لطيــف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح عن الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانـــا إذا لــم تُبن"(١).

وكلمة "حامية" صفة لكلمة "نار"، ووصف النار بالحامية يفيد المبالغة في تهويلهـــا، وأنها شديدة حرارتها، قويٌ لهيبها وسعيرها، وأن نيران الدنيا مجتمعـــة ليســـت بحاميـــة مقارنة بها.

ويؤيد ذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: "نار بني آدم التي توقدون جــزء من سبعين جزءا من نار جهنم" قالوا: يا رسول الله إن كانت لكافية؟ فقال: "إنها فضــلت عليها بتسع وستين جزءا". وفي رواية أخرى: "إنها فضلت عليها بتسعة وســتين جــزءا كلهن مثل حرها."(٢).

ويري صاحب التحرير والتنوير أن وصف "نار" بـــ "حامية" مــن قبيــل التوكيــد اللفظي؛ لأن النار لا تخلو من الحَمْي؛ فوصفها بما هو في معنى لفظ "نار" فكـــان كـــذكر المرادف لها، كقوله تعالى: " نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ "(٣).

وللإمام الرازي ملحظ جميل في ربط أول السورة بآخرها في قوله تعـــالى: "وَمَـــا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ" كأنه قال: قارعة من قوارع الدنيا في جنب تلك القارعة كأنها ليســـت بقوارع، ونار الدنيا في جنب نار الآخرة كأنها ليست بنار؛ ولذلك قال في آخر الســـورة:

(١) دلائل الإعجاز تحقيق محمود شاكر صـــ٤٦.

(٢) تفسير ابن كثير جـــ٤ صـــ٤٩٥.

(٣) التحرير والتنوير جـــ٣٢ صـــ٥١٥.

"نَارٌ حَامِيَةٌ"؛ تنبيها على أن نار الدنيا في جنب تلك ليست بحامية، وصار آخـــر الســـورة مطابقا لأولها من هذا الوجه"

فإن قيل ههنا قال: "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ"، وقال في آخر السورة: "فَأُمُّهُ هَاوِيَـــةٌ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ" ولم يقل: وما أدراك ما هاوية فما الفرق؟ قلنا: الفرق أن كونها قارعة أمر محسوس، أما كونها هاوية فليس كذلك؛ فظهر الفرق بين الموضعين.(١)

وبهذا الحديث عن ارتباط آخر السورة بأولها، ومن ثم وحـــدة الســـورة وتماســـك لبناتها؛ ينتهي الحديث حول سورة القارعة. ولله الفضل والمنة.

---

(١) التفسير الكبير للرازي جـ٣٢ صـ٦٨.

الخاتمة

بعد هذه المعايشة للسورة الكريمة؛ والتي تعد من أمتع لحظات عمر الإنسان، حيث كانت تذكرني بوحي السماء، أتخيل فيها أمين الوحي جبريل عليه السلام وهو ينزل بآيات هذه السورة وغيرها على قلب حبيبنا المختار ﷺ، وكفى للمرء شرفا بهذه المعايشة.

وأشير في هذه الخاتمة إلى أهم النقاط التي تعرضت إليها الدراسة فيما يأتي:

- مكية هذه السورة، واتفاق المفسرين على القارعة اسماً لها ، وعدم ورود سبب في نزولها.
- اشتمال السورة على أهم القضايا التي ارتكزت عليها عقيدة المسلم؛ والتي هي من أهم سمات القرآن المكي؛ ألا وهي قضية البعث والجزاء.
- الارتباط الشديد بين أول سورة "القارعة"، وآخر سورة "العاديات".
- المناسبة بين سورة "القارعة" لما قبلها من حيث الترتيب التنزيلي "سورة قريش"
- توضيح العلاقة بين مطلع سورة "القارعة" وآخرها.
- ذكْر بعض مشاهد القيامة، حيث قرنت بين صورة الناس وصورة الجبال، ومن ثم الجمع بين صورة الفراش المبثوث، وصورة العهن المنفوش.
- الإشارة إلى وقوع لفظ "القارعة" فى القرآن الكريم.
- المقارنة بين لفظ "القارعة" ولفظ "الحاقة".
- بلاغة التكرار في لفظ القارعة.
- مجيء القرآن على طريقة العرب في لطيف المحاورات التي تشوق المخاطب لمعرفة شيء ما عن طريق الاستفهام؛ وذلك في قوله تعالي: "مَا الْقَارِعَةُ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ".
- الترقي في عنصر التشويق، والترقي في زيادة التفخيم والتعظيم، ومن ثم زيادة التهويل من شأن القارعة، حيث بدأت الآية الأولى بكلمة واحدة "الْقَارِعَةُ" ثم زاد الترقي إلى كلمتين في الآية الثانية "مَا الْقَارِعَةُ" ثم وصل التشويق والتفخيم والتعظيم ذروته في الآية الثالثة؛ مصحوبا بعدم دراية ماهيتها في أربع كلمات "وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ"، ثم تأجيل الجواب إلى الآية الرابعة.

- مجيء الإظهار في مقام الإضمار مرتين وبيان بلاغته؛ وذلك في الآية الثانية والثالثة، حيث لم يقل القرآن: ما هي، ولم يقل: وما أدراك ما هي.
- الإشارة إلى البلاغة الصوتية في لفظ "الْقَارِعَة" وما أعطاه اللفظ من دلالات وإيحاءات وأثر ذلك في تصوير هول القارعة.
- بيان الفرق بين قوله تعالى: " وَمَا أَدْرَاكَ " وبين قوله: " وَمَا يُدْرِيكَ ".
- دفع إيهام التعارض بين تصوير الناس عند خروجهم من قبورهم بالفراش المبثوث، وبين تصويرهم بالجراد المنتشر في "آية القمر".
- دلالة الجمع بين الناس والجبال، وسر اختيار كلمة "الناس" دون "الإنسان" .
- بيان الفرق بين تصوير الجبال بالعهن المنفوش، وبين تصويرها بالعهن في آية المعارج.
- دلالة مجيء كلمة " الْمَبْثُوثِ " وكلمة " الْمَنْفُوشِ " على صياغة صرفية واحدة، وأثر الدلالة الصوتية لكل منهما على التصوير.
- تناسب وجود الألوان بين الفراش، والجبال، والعهن.
- بيان بلاغة المقابلة بين من ثقلت موازينه، وبين من خفت موازينه.
- بيان بلاغة الجمع بين المقابلة، وبين أسلوب الشرط.
- بيان بلاغة أسلوب الاحتباك في إظهار المقابلة بين: " عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ " وبين عيشة ساخطة، وبين: فأمه الجنة، وبين " فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ".
- تآزر أسلوب المقابلة، وأسلوب الشرط، وأسلوب الاحتباك وأثر ذلك في التصوير.
- بلاغة التشبيه في السورة، وسر اختيار "الكاف" أداة للتشبيه.
- بيان نوع المجاز في قوله:" عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ" وبيان سر اختلاف العلماء في تحديد نوع المجاز.
- بيان اختلاف مرجع الضمير في قوله: " مَا هِيَهْ " ومتى يكون أسلوب "الاستخدام" في هذا الضمير.
- بلاغة حذف المسند إليه في قوله تعالى:"نار حامية"

- دلال مجيء كلمة " هَاوِيَةٌ "، " رَاضِيَةٍ "، " حَامِيَةٌ " على وزن واحد.
- بيان أثر الفواصل القرآنية في التأثير العميق بموقف القارعة والإحساس بـان القـارئ يعيش في جو مرعب مخيف يتحوطه الفزع والهلع من كل جانب.
- الإشارة إلى من تساوت حسناته مع سيئاته.
- توضيح الحقيقة والمجاز في قوله: " فَأُمُّهُ ".

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولا: القرآن الكريم

ثانيا:

- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤م
- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي دار المعرفة_ بيروت_ لبنان.
- أساس البلاغة للزمخشري دار المعرفة_ بيروت_ لبنان ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.
- أسماء سور القرآن، عبد الله بن سالم الهنائي جـ١_مطبعة عمان ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الإعجاز اللغوي والبياني في سورة القارعة للأستاذة :زيتونة محمد رفائي –نسخة إلكترونية –شبكة المعلومات.
- إعراب القرآن للنحاس تحقيق د.محمد أحمد قاسم_دار ومكتبة الهلال _دار البحار جـ١_٢٠٠٤م.
- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم لابن خالويه_مكتبة المتنبي بالقاهرة.
- البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم_المكتبة العصرية_صيدا_لبنان.
- بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ط٨_مطبعة محمد علي صبيح بمصر.
- تفسير أبي السعود المسمي"إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم" دار الكتب العلمية ببيروت_لبنان.
- تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ط ٢١_دار الفكر _١٤٣٠هـ / ١٩٨٣م.
- تفسير البيضاوي والمسمى "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" للقاضي ناصر الدين أبي سعيد الشيرازي البيضاوي_دار الكتب العلمية ببيروت.
- تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور_دار سحنون للنشر_تونس.

- تفسير سورة القارعة د/عويض بن حمود العطـوي –نسـخة إلكترونيـة –شـبكة المعلومات.

- تفسير القاسمي المسمى "محاسن التأويل" لمحمد جمال الدين القاسـمي_دار إحيـاء التراث–بيروت_لبنان.

- تفسير القرآن لابن كثير_المكتبة العصرية_بيروت_لبنان.

- تفسير النسفي لعبد الله بن أحمد بن محمود النسفي_مطبعة عيسى الحلبي_مصر.

- جامع البيـان فـي تفسـير القـرآن للإمـام الطبـري_دار الحـديث بالقـاهرة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي_دار إحياء التراث_بيـروت_دار الكتـب العلميـة ببيروت ط٥_١٤١٧هـ/١٩٩٦م.

- جمال القراء وإكمال الإقراء للإمام علي الدين السخاوي_تحقيق عبد الحـق عبـد الدايم_مؤسسة الكتب الثقافية ط١_ ١٤٤١هـ/١٩٩١م.

- حاشية أحمد بن محمد علي الصاوي على تفسير الجلالين_دار الجيل_بيروت.

- حاشية الشهاب علي تفسير البيضاوي المسماة "عناية القاضي وكفاية الراضي" دار صادر بيروت.

- حاشية محي الدين شـيخ زاده علـى تفسـير البيضـاوي_دار إحيـاء التـراث العربي_بيروت_لبنان.

- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق الشيخ محمـود شـاكر_مطبعة المدني_القاهرة ط٣_ ١٤٢٣هـ/١٩٩٢م.

- ديوان النابغة الذبياني تحقيق محمد أبـو الفضـل إبـراهيم ط٣_دار المعـارف _ القاهرة.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم للألوسي_دار إحياء التـراث _ بيـروت _ لبنان ط٤_ ١٤٠٥هـ_١٩٨٥م.

- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين_ للإمام النووي _ مؤسسة المعـارف _ بيروت _ لبنان.

- زاد المسير في علم التفسير للإمام أبى الفرج جمال الدين عبد الرحمن الجــوزي _ المكتب الإسلامي.

- صفوة التفاسير للصابوني_دار إحياء التراث العربي_بيروت_لبنان.

- الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري تحقيق محمد باسل عيون السود ط٣ دار الكتب العلمية-بيروت_لبنان ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشري دار الفكر.

- لسان العرب لابن منظور_دار المعارف القاهرة.

- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل د.فاضل السامرائي ط٢_دار عمــار_الأردن ١٤٢٢هـ_ ٢٠٠١م.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية_تحقيق عبــد الســلام عبــد الشافي-دار الكتب العلمية_بيروت_لبنان.

- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور لأبي الحســن البقــاعي_تحقيق عبــد السميع حسين_مكتبة المعارف_الرياض ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

- معاني القرآن وإعرابه للزجاج تحقيق د.عبد الجليل شلبي_دار الحديث_القاهرة.

- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصــفهاني_كتاب الجمهوريــة_دار التحريــر للطبع والنشر ١٩٩١م.

- ملحق أضواء البيان في إيضاح القرآن للشيخ محمد أمين الشــنقيطي_دار الحــديث القاهرة١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٦م.

- من أسرار التعبير القرآني لسورة الأحزاب د.محمد أبو موسي ط٢ مكتبــة وهبــة ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

- المنجد في اللغة والأدب والعلوم_لويس معلوف ط١٩_الطبعة الكاثوليكية_بيروت.

- من عطاء نظم القرآن د/عبد الحميد العسوي_ط١٤١٠-١٩٩٠

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي-تحقيق عبــدالرازق المهــدي- دار الكتب العلمية -بيروت-١٤١٥ه-١٩٩٥.